

العقل

عناصر الموضوع

٩٤	مفهوم العقل
٩٥	العقل في في الاستعمال القرآني
٩٦	الأنفاظ ذات الصلة
٩٩	العقل نعمة
١٠١	ضوابط العقل
١٠٣	مجالات استعمال العقل
١١٨	ثمار استعمال العقل
١٣٥	الآثار المترتبة على إهمال العقل

مفهوم العقل

أولاً: المعنى اللغوي

أصل مادة (عقل) تدل على حُبسة في الشيء أو ما يقارب الحبسة. من ذلك العقل، وهو الحابس عن ذميم القول والفعل^(١).
والعقل أيضاً: نقيض الجهل، يقال: عَقَلَ يعقل عقلاً فهو عاقل، والمعقول: ما تعقله في فؤادك، ويقال: هو ما يُفهم من العقل^(٢).
وأصل العقل: الإمساك والاستمساك، كعقل البعير بالعقال، وعقل الدواء البطن^(٣).
قال الزبيدي: العقل هو العلم بصفات الأشياء من حسناتها وقبحها، وكمالها ونقصانها^(٤).
وهو مأخوذ من عقل الدابة، فكذلك العقل يمنع صاحبه من الكفر والجحود^(٥).

ثانياً: المعنى الاصطلاحي

عرفه ابن عطية بأنه: الإدراك المانع من الخطأ^(٦).
ويقول الأصفهاني: هو القوة المتهيئة لقبول العلم، ويقال للعلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوة عقل^(٧).
«وقيل: إن العقل هو المدرك للأشياء على ما هي عليه من حقائق المعاني»^(٨).
«وَأُسْمِيَ الْعَقْلُ عَقْلاً؛ لَأَنَّهُ يَعْقِلُ بِهِ مَا يَنْفَعُهُ مِنَ الْخَيْرِ، وَيَنْعَقِلُ بِهِ عَمَّا يَضُرُّهُ»^(٩).
فالعقل يميز به الحق والباطل، ويمنع صاحبه من ارتكاب ما يضر.

- (١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٦٩/٤، مجمل اللغة، ابن فارس، ٦١٧/١.
- (٢) انظر: العين، الفراهيدي، ١٥٩/١، جمهرة اللغة، أبو بكر الأزدي، ٩٣٩/٢، المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده المرسى، ٢٠٥/١.
- (٣) انظر: المفردات، الأصفهاني، ص ٥٧٨.
- (٤) انظر: تاج العروس ١٨/٣٠.
- (٥) انظر: معالم التنزيل، البغوي، ٨٨/١.
- (٦) انظر: المحرر الوجيز، ١٣٧/١.
- (٧) انظر: المفردات ص ٥٧٧.
- (٨) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٣٧٠/١.
- (٩) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥١.

العقل في استعمال القرآني

وردت مادة (عقل) في القرآن الكريم (٤٩) مرة^(١).
والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١	﴿ثُمَّ يُخْرِفُوتُهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥]
الفعل المضارع	٤٨	﴿ذَلِكَ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١]

وجاء العقل في القرآن الكريم بمعنى الفهم^(٢)، قال تعالى: ﴿وَلِلَّائِسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَاقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].
أي: وما يفهمها ويتدبرها إلا الراسخون في العلم المتضلعون منه^(٣).

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٤٦٨ - ٤٦٩.

(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٤٥٨/١١، بصائر ذوي التمييز، الفيروز آبادي ٨٥/٤.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢٧٩/٦.

الألفاظ ذات الصلة

١ اللب:

اللب لغة:

«لُبُّ: لُبُّ كُلِّ شَيْءٍ: دَاخِلُهُ، وَلُبَابُهُ أَيْضًا. وَكَذَلِكَ الْخَالِصُ الْخِيَارُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ»^(١).
«وَاللُّبُّ: خُلَاصَةُ الشَّيْءِ وَقَلْبُهُ، وَلُبُّ الرَّجُلِ: مَا جَعَلَ فِي قَلْبِهِ مِنَ الْعَقْلِ. وَشَيْءٌ لِبَابٌ:
خَالِصٌ. ابْنُ جَنِي: هُوَ لِبَابُ قَوْمِهِ، وَهَمُ لِبَابُ قَوْمِهِمْ، وَهِيَ لِبَابُ قَوْمِهَا، وَلِيبِبُّ: عَاقِلٌ ذُو
لِبٍّ»^(٢). «لِبِبٌ: الْأَلْبَابُ: الْعُقُولُ»^(٣).

اللُّبُّ اصطلاحًا:

«وَأَطْلُقُ هُنَا عَلَى عَقْلِ الْإِنْسَانِ؛ لِأَنَّهُ أَنْفَعُ شَيْءٍ فِيهِ، وَلِبُ الرَّجُلِ: مَا جَعَلَ فِي قَلْبِهِ مِنَ
الْعَقْلِ»^(٤)، وَقِيلَ: «هُوَ مَا زَكِيَ مِنَ الْعَقْلِ، فَكُلُّ لِبٍ عَقْلٌ وَلَيْسَ كُلُّ عَقْلٍ لُبًّا»^(٥).

الصلة بين العقل واللب:

كل لبیب له عقل حصیف، یعقل به خالص الأمور وأنفعها.

٢ النهی:

النهی لغة:

«نَهَى: النَّوْنُ وَالْهَاءُ وَالْيَاءُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى غَايَةِ وَبُلُوغٍ»^(٦)، وَ«النَّهْيَةُ: الْعَقْلُ؛ لِأَنَّهُ
يَنْهَى عَنِ قَبِيحِ الْفِعْلِ وَالْجَمْعُ نُهْيٌ»^(٧)، وَهُوَ «الزَّجْرُ عَنِ الشَّيْءِ»^(٨)، «وَجُعِلَ اسْمًا لِلْعَقْلِ
الَّذِي انْتَهَى مِنَ الْمَحْسُوسَاتِ إِلَى مَعْرِفَةِ مَا فِيهِ مِنَ الْمَعْقُولَاتِ»^(٩).

النَّهْيُ اصطلاحًا:

- (١) المحيط في اللغة، الصاحب بن عباد، ٢/٤٥١.
- (٢) جوهرة اللغة، الأزدي ١/٧٦، المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ١٠/٣٦٦، وانظر: لسان العرب، ابن منظور ١/٧٢٩.
- (٣) تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب، أبو حيان الأندلسي، ١/٢٧٤.
- (٤) لسان العرب، ابن منظور، ١/٧٢٩.
- (٥) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٧٣٣.
- (٦) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/٣٥٩.
- (٧) المصدر السابق.
- (٨) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٨٢٦.
- (٩) الذريعة إلى مكارم الشريعة، الراغب الأصفهاني، ١/١٣٧.

ذكر السعدي: «النُّهى، أي: العقول السليمة والفطر المستقيمة والألباب التي تزجر أصحابها عما لا ينبغي»^(١).

الصلة بين العقل والنُّهى:

العقل والنهى مترادفان فبالعقل يُمنَع الشخص عن ارتكاب المعصية، وبالنهى ينزجر ويتتهى عن المحرمات والمعاصي.

٣ الحجا:

الحجا لغة:

«الحاء والجيم والحرف المعتل أصلان متقاربان، أحدهما إطفاء الشيء بالشيء وملازمته، والآخر القصد والتعمد»^(٢)، «الحجا: الستر والعقل»^(٣)، «حجا: مفرد، الجمع أحجاء، وأحجية: عقل وفطنة، من ذوي الحجا: ذكيّ حكيم»^(٤).

الحجا اصطلاحاً:

«الحجا هو ثبات العقل من قولهم: تَحَجَّى بالمكان إذا أقام فيه»^(٥).

الصلة بين العقل والحجا:

بالعقل يتم الفهم والحفظ، وبالحجة يقوى على الاستنباط وإظهار المعاني.

٤ الذهن:

الذهن لغة:

«الذال والهاء والنون أصل يدل على قوة، وهو الفطنة للشيء والحفظ له»^(٦).

الذهن اصطلاحاً:

«هو قوة للنفس معدة لاكتساب العلوم، تشمل الحواس الظاهرة والباطنة»^(٧)، وقيل: هو «قوة للنفس تشمل الحواس الظاهرة والباطنة معدة لاكتساب العلوم، وهو الاستعداد التام لإدراك العلوم والمعارف بالفكر»^(٨).

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٥١٦.

(٢) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٢/ ١٤١.

(٣) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ١/ ١٥٩.

(٤) معجم اللغة العربية المعاصرة، د. أحمد مختار - ١/ ٤٥١.

(٥) الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، ص ٨٥.

(٦) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٢/ ٣٦٣.

(٧) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي، ص ١٧١.

(٨) الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، ص ٨٥.

الصلة بين الذهن والعقل:

بالعقل والذهن يتم الفهم والحفظ وإدراك العلوم والمعارف، وذلك باشتراك الحواس الظاهرة والباطنة.

٥ الحجر:

الحجر لغة:

«الحاء والجيم والراء أصل واحد مطرد، وهو المنع والإحاطة»^(١).

الحجر اصطلاحًا:

هو «قوله تعالى لذي حجر أي: عقل ولب، فمن كان ذا عقل ولب علم، قال الحسن: لذي حجر، أي: لذي حلم. وقال أبو مالك: لذي ستر من الناس. وقال الجمهور: الحجر: العقل. قال الفراء: الكل يرجع إلى معنى واحد، لذي عقل ولذي حلم ولذي ستر، الكل بمعنى العقل. والعرب تقول: إنه لذو حجر إذا كان قاهرًا لنفسه ضابطًا لها»^(٢).

الصلة بين العقل والحجر:

صاحب العقل السليم والفطرة السوية يكون ذا حجر، حيث يمنع صاحبه ويحجّره عن الوقوع في ما لا يحل له، ولا يليق به من القبائح.

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، ١٣٨/٢.

(٢) فتح القدير، الشوكاني، ٥/٥٢٨.

العقل نعمة

إن من أفضل نعم الله على عباده نعمة العقل، فلولا العقل لما عَرَفَ الإنسان دين الإسلام والنبوة، والخير والشر، والحق والباطل، والمعروف والمنكر.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَرْدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الاسراء: ٧٠].

فاللَّهُ سبحانه وتعالى فضل بني آدم على غيرهم من الجمادات والحيوانات، والنباتات بهذا العقل.

فإذا فقد الإنسان العقل السليم الذي يقوده إلى الخير ويبعده عن الشر، فقد أصبح كالبهيمة التي تأكل وتشرب ولا تعقل شيئاً، بل إنها خيرٌ منه كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

قال ابن حزم: وَحَدُّ الْعَقْلِ يَنْطَوِي فِيهِ فِعْلُ الطَّاعَاتِ وَالْفَضَائِلِ، وَاجْتِنَابُ الْمَعَاصِي وَالرَّذَائِلِ، وَقَدْ نَصَّ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ عَلَى أَنْ مِنْ عَصَاهُ لَا يَعْقِلُ.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠].

وَحَدُّ الْحَقِّ: اسْتِعْمَالُ الْمَعَاصِي وَالرَّذَائِلِ، وَهُوَ ضِدُّ الْعَقْلِ، وَلَا وَاسْطَةَ بَيْنِ الْحَقِّ وَالْعَقْلِ إِلَّا السَّخْفُ^(١).

وأفضل مواهب الله لعباده العقل، ولقد أحسن الذي يقول^(٢):

أفضل قسم الله للمرء عقله

فليس من الخيرات شيء يقاربه

إذا أكمل الرحمن للمرء عقله

فقد كملت أخلاقه ومآربه

يعيش الفتى في الناس بالعقل إنه

على العقل يجري علمه وتجاربه

يزيد الفتى في الناس جودة عقله

وإن كان محظوراً عليه مكاسبه

قال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٤٠].

«وقد جُعِلَ للعقل نَظَرٌ وإِدْرَاكٌ ورؤية وإبصارٌ، وجعل له أضدادُه من العمى وغيره، قال الله تعالى: ﴿وَتَرَبَّيْنَاهُمْ نَبْطَرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٨]»^(٣).

«إنما العاقل من وَحَدَّ اللَّهُ تَعَالَى وعَمِلَ بطاعته، وقال تعالى حكاية عن أهل النار:

﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾^(١٠)»

(١) انظر: الأخلاق والسير في مداواة النفوس، ص ٥٨.

(٢) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، ابن حبان، ص ١٧.

(٣) الذريعة إلى مكارم الشريعة، الأصفهاني، ص ١٣٥.

[الملك: ١٠] (١).

«قيل لابن المبارك: ما خير ما أعطي الرجل؟ قال: غريزة عقل، قيل: فإن لم يكن؟ قال: أدب حسن، قيل: فإن لم يكن؟ قال: أخ صالح يستشير، قيل: فإن لم يكن؟ قال: صمت طويل، قيل: فإن لم يكن؟ قال: موت عاجل» (٢).

وفي الصحيحين من حديث النعمان ابن بشير رضي الله عنهما: (ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب) (٣).

فإذا آمن القلب، آمنت الجوارح بفعل المأمورات وترك المنهيات؛ لأن القلب أمير البدن، وذلك يدل دلالة واضحة على أن القلب ما كان كذلك إلا لأنه محل العقل الذي به الإدراك والفهم.

وقد حشد القرآن الكريم عشرات الآيات القرآنية الداعية إلى استعمال العقل والتفكير والتدبر في آيات الله الكونية، وآيات الله القرآنية، وجعل الله سبحانه وتعالى التفكير

(١) المصدر السابق ص ١٣٦.

(٢) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، ابن حبان، ص ١٧.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، فضل من استبرأ لدينه، ٢٠/١، رقم ٥٢، ومسلم في صحيحه، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، ٣/١٢١٩، رقم ١٥٩٩.

فريضة إسلامية فقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفَكُّوْنَ﴾ [النحل: ٤٤].

وقد خص أصحاب العقول الصافية، والقلوب النيرة أولي الأبواب، وأصحاب الفطرة السليمة بهذا التفكير والتدبر، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ أَلْوَانِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَالْأَنْبَاءِ بِالْأَنْبِيَاءِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

«وخصَّ الله بالآيات أولي الأبواب، وهم أهل العقول؛ لأنهم هم المتفكرون بها، الناظرون إليها بعقولهم لا بأبصارهم» (٤).

والواجب علينا أن نقوم بالمحافظة عليه؛ كي يبقى سليماً بعيداً عن الشبهات التي تتسبب في نقص الإيمان أو انعدامه كلية، كذلك الابتعاد عن تعاطي كل ما يخامر العقل ويؤدي بالإنسان إلى ارتكاب حماقات أو جرائم هو والمجتمع في غنى عنها، عدا ذلك الأضرار الصحية وما ينجم عنها من خسائر وأضرار مادية ومعنوية تعود على الشخص وعائلته وكذلك المجتمع.

لذا فقد حدد الشارع الحكيم أموراً لا بد من الابتعاد عنها للمحافظة على العقل سليماً منها، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَصْصَابُ وَالْأَزْجَارُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠].

(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٦١.

ضوابط العقل

لقد اهتم الإسلام بالجانب العقلي بما يتفق مع الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وقد أحاط العقل بسياج من العناية والرعاية، فالإسلام فتح المجال للعقل للتفكير، والتدبر في آيات الله المسطورة والمنظورة، فلا نكاد نجد سورة من سور القرآن، تخلو من دعوة للتفكير والتدبر في هذا الكون الفسيح، بكل ما فيه من دلائل على قدرة الله سبحانه، قال تعالى: ﴿كَتَبْنَا لَهُ آيَاتِهِ إِلَى أَنْ يَكْتُمُ﴾ [ص: ٢٩].

ولكن هذه الدعوة ليست مفتوحة على مصراعيها، بل وُضِعَ لها حدود وقيود، لا بد من الأخذ بها تجنباً للوقوع في الأخطاء، إن العقل يُسَلَّمُ بمحدودية معارفه وانحصارها في عالم الشهادة، أما عالم الغيب فلا سبيل إلى معرفته والإلمام بأسراره وخصائصه إلا بالوحي، ومن هنا أدركت العقول الصحيحة أن الإنسان في حاجة ماسة إلى الوحي الإلهي للوصول إلى المعرفة الصحيحة حول الكون وخالقه والإنسان ودوره في التعمير وخلافة الله في الأرض ومصيره في الآخرة، والإحساس بالحاجة إلى الوحي ليس فيه غمط للعقل والحس ودورهما في المعرفة، ذلك أن الوحي يهدي هذه الوسائل ويصحح مسارها ويرشدها إلى الحقائق

فالعقل نعمة عظيمة وهبة كبيرة من الله عز وجل، يجب أن نشكر المولى عليها شكراً عملياً، وذلك بحفظ العقل مما يكدر صفوه، ويعكر فهمه، ويفسد صلاحه، ويطمس نوره، إنه أمانة يجب حفظها، وعطية يتحتم رعايتها، وذلك بالبعد عن الشبهات، والحذر من الشهوات.

إن حماية العقل وحراسة الفكر واجب فردي، وواجب جماعي، وواجب حكومي. يجب على الفرد أن يحمي عقله من مهاوي الردى، ودروب الزلل، ومراتع الخلل، يجب على أفراد المجتمع أن يتعاونوا على حراسة العقول، وحماية الأذهان، ورعاية الأفكار، يجب على المسؤولين أن يتقوا الله في عقول رعاياهم، فيحولوا بينهم وبين ما يفسد هذه العقول، ويشوش أذهانهم، ويطمس بصائرهم، من كتب مضللة، وأفكار هدامة، وأفلام ماجنة، ومسلسلات هابطة، وبرامج ساخرة، وأغانٍ محرمة.

اللهم متعنا بعقولنا ما أحسبنا، اللهم عمر قلوبنا وعقولنا بحبك وطاعتك وحب من يحبك، اللهم تَوَرَّ أبصارنا، وَزَكِّ نفوسنا، واحفظ من الزيغ أفكارنا وعقولنا، اللهم آمين.

التي لا سبيل أن يصل إليها العقل والحس بمفردهما، لا يمكن بحال أن يغني العقل عن النبوة والرسالة، وطالما أن الإنسان مُحاسَبٌ مجازي على أعماله فإن مبعث الرسل للشعوب والأمم وللخليقة أجمعين يعد واجبا، قال تعالى: ﴿لَنَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

كما يعد الوحي حقيقة لا ينكرها إلا متغلب من ضوابط العقل والحس وثوابت النقل وكُلَّ سبيل المعرفة وتحصيل العلم^(١). وقد حدد العلماء مجال استعمال العقل بعدد من الضوابط منها:

✽ أن لا يتعارض مع النصوص الصحيحة. «العقل والوحي لا يتعارضان فهما متكاملان، وهما يوصلان إلى طريق واحد، وهو معرفة الله تعالى والإقرار بوحدانيته، وهو ما يثبت بالعقل وهو ما يؤيده قوله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَمَّا لَبَّاهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ عَنِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا يَتْرَكُونَ» [المؤمنون: ٩١-٩٢]. ثم يأتي

دور الوحي لتعرف من خلاله على ما يجب لله، وما يستحيل في حقه، وما

(١) انظر: السنة النبوية وحي من الله محفوظة كالقرآن الكريم، أبو لبابة بن الطاهر حسين، ١٤/١-١٦.

يُرضيه وما يُسخطه، وكيف نعبده^(٢).
✽ أن لا يكون استعمال العقل في القضايا الغيبية التي يعتبر الوحي هو المصدر الصحيح والوحيد لمعرفة.

✽ أن يقدم النقل على العقل في الأمور التي لم تتضح حكمتها، وهو ما يعرف بالأمور التوقيفية.

ولا شك أن احترام الإسلام للعقل وتشجيعه للنظر والفكر لا يقدمه على النصوص الشرعية الصحيحة، خاصة أن العقول متغيرة، وتختلف وتتأثر بمؤثرات كثيرة تجعلها لا تصلح لأن تكون الحكم المطلق في كل الأمور^(٣).

مما سبق نجد أن الله تعالى لم يحجر على العقل، بل أمرنا بالتدبر والتفكير في آلائه سبحانه وتعالى لنزداد يقيناً وإيماناً بوحدانيته سبحانه وبقدرته على الخلق والإيجاد والرزق والإحياء والإماتة، لكنه لم يترك المجال للعقل على مصراعيه؛ لأن العقل له قدر محدود من الفهم والإدراك خاصة في علوم الغيب التي لا يعلمها إلا الله وحده، بينما الأمور الأخرى التي

(٢) العقل في القرآن والسنة، سالم عبدالجليل، أبحاث ووقائع المؤتمر العام الثاني والعشرين، ص ٩.

(٣) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ٧٠/١.

مجالات استعمال العقل

الله سبحانه وتعالى أكرم الإنسان وخلقته في أحسن صورة، وميزه بالعقل ليتدبر أمره ويتعرف على الكون من حوله، فالله سبحانه وتعالى لم يحجر على عقولنا بل جعل التدبر والتفكر عبادة، فهو سييلنا للتعرف على موجد الكون بصفاته وقدرته، لكن توجد ضوابط معينة يعمل من خلالها العقل، فلا نستطيع الخوض في ذات الله سبحانه أو تأويل الصفات وتشبيهها وتمثيلها وتكييفها، فالله سبحانه هو أعلم بذاته، وهو أعلم بصفاته فنحن نمررها كما وردت، كذلك الغيبات العقل لا يستطيع الاطلاع عليها، لذا علينا أن نستعمل عقولنا في النطاق المسموح لنا استعماله فيه بل ونؤجر على استعمالنا لعقولنا، اللهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك على نعمة العقل.

أولاً: دلائل وحدانية الله:

خلق الله تعالى البشر لعبادته سبحانه وتعالى وإفراده وحده بهذه العبادة.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وأرسل لهم الرسل مبشرين ومنذرين، قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِيَتْلَىٰ عَلَى النَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾

تتعلق بأمورنا الدنيوية من مصالح مرسلة أو العمل بالقياس والاجتهاد، فسمح للعلماء المتعلمين القادرين على الاستنباط بالقيام بمثل تلك الأمور، كذلك عند تعارض النقل والعقل يقدم النقل على العقل، لأن العقل حدود معرفته وتصوره محدودة.

[النساء: ١٦٥].

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنُتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٨].

«قال مقاتل: إن كنتم تعقلون توحيد الله»^(١).

«قال موسى: إنه الرب الذي تشاهدون آثاره كل يوم، فيأتي بالشمس من المشرق، ويحركها على مدار غير مدار اليوم الذي قبله، حتى يبلغها إلى المغرب على وجه نافع ينتظم به أمور الكائنات. إن كنتم تعقلون إن كان لكم عقل علمتم ألا جواب لكم فوق ذلك»^(٢).

«هو الذي جعل المشرق مشرقا تطلع منه الكواكب، والمغرب مغربا تغرب فيه الكواكب، ثوابتها وسياراتها، مع هذا النظام الذي سخرها فيه وقدرها، فإن كان هذا الذي يزعم أنه ربكم وإلهكم صادقا فليعكس الأمر، وليجعل المشرق مغربا، والمغرب مشرقا»^(٣).

«﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي إن كان لكم عقل علمكم أنه لا تمكن معرفته إلا بهذا الطريق»^(٤).

«﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: إن كان لكم عقول تعقلون بها ما يقال لكم، وتفهمون

بها ما تسمعون مما يعين لكم؛ فلما أخبرهم موسى عليه السلام بالأمر الذي علموا أنه الحق الواضح»^(٥).

«قال موسى: رب المشرق والمغرب وما بينهما وما يكون فيهما من نور وظلمة، وهذا يستوجب الإيمان به وحده إن كنتم من أهل العقل والتدبر»^(٦).

وهكذا نجد كيف تتجلى وظيفة العقل في هذه الآية، وهي الاستدلال بمظاهر قدرة الله وعظمته على توحيده وعدم الإشراك به. قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتَلَفُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٠].

«﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾»، كنه قدرته وربوبيته و وحدانيته، وأنه لا يجوز أن يكون له شريك من خلقه، وأنه قادر على البعث»^(٧).

«﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾»، أي: يحيي الموتى ويميت الأحياء. ﴿وَلَهُ اخْتَلَفُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾، أي: ذهاب الليل ومجيء النهار، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أمر الله؟ ويقال: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ توحيد ربكم فيما ترون من صنعه فتعتبرون؟»^(٨).

١. دلائل الآفاق.

(٥) جامع البيان، الطبري، ١٩/ ٣٤٥.

(٦) التفسير الميسر، نخبة من أساتذة التفسير، ص ٣٦٨.

(٧) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٢/ ١٤٤.

(٨) تفسير السمرقندي، ٢/ ٤٨٧.

(١) التفسير البسيط، الواحدي، ١٧/ ٤٦.

(٢) التفسير المنير، الزحيلي، ١٩/ ١٣٧.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ١٣٩.

(٤) مدارك التنزيل، النسفي، ٢/ ٥٦٠.

« أخبر عن عباده الصالحين بأنهم يتفكرون في خلق السموات والأرض وما أبدع الله فيهما من عجائب مصنوعات وغرائب مبتدعاته ليدلهم ذلك على كمال قدرة الصانع سبحانه وتعالى ويعلموا أن لهما خالقًا قادرًا مدبرًا حكيمًا؛ لأن عظم آثاره وأفعاله تدل على عظم خالقها سبحانه وتعالى، كما قيل: وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد»^(٢).

ومما ذكر في القرآن الكريم من آيات دالة على التفكير في الآفاق حيث يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ أَلْيَلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَنْجَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِينَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

«هذه الآيات الست الكونية أكبر برهان وأقوى دليل على وجود الله سبحانه وتعالى وعلمه وقدرته ورحمته بعباده، ولذلك هو رب العالمين وإله الأولين والآخرين، ولا رب غيره ولا إله سواه. «والحاصل، أنه كلما تدبر العاقل في هذه المخلوقات، وتغلغل فكره في بدائع المبتدعات، وازداد تأمله للصنعة، وما أودع فيها من لطائف البر

لقد خلق الله الإنسان وميزه عن سائر المخلوقات الأرضية بالعقل، بل وأمره بعدم تعطيل هذا العقل، فأمر المكلفين بعبادة التفكير في خلق الله سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَآخْتِلَافِ أَلْيَلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۝ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَنَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۝﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١].

«وإذا عرف بهذا البرهان قصور عقله لم يبق معه إلا الاعتراف بأن الخالق أجل من أن يحيط به وصف الواصفين ومعارف العارفين بل يسلم أن في كل ما خلقه الله تعالى حكمًا بالغة وأسرارًا عظيمة ولا سبيل له إلى معرفتها، فعند هذا يقول: ربنا ما خلقت هذا، أي: المخلوق العجيب باطلاً، أي: بغير حكمة، بل خلقته بحكمة عظيمة، - سبحانه - وهذا إقرار بعجز العقول عن الإحاطة بآثار حكمة الله تعالى في خلق السموات والأرض، أي: إن الخلق إذا تفكروا في هذه الأجسام العظيمة لم يعرفوا منها إلا هذا القدر. وهو أن خالقها ما خلقها باطلاً، بل خلقها لحكم عجيبة وأسرار عظيمة، وإن كانت العقول قاصرة عن معرفتها»^(١).

(٢) لباب التأويل، الخازن، ١/ ٣٣٢.

(١) مراح ليبد، محمد الجاوي، ١/ ١٧٦.

اتفاقهما على أمر واحد، ولا تمتنع في أفعالهما التساوي في صفة الكمال، فثبت بذلك أن خالق هذا العالم والمدير له واحد قادر مختار^(٤).

قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٤].

«إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ» يستعملون عقولهم في استنباط أسبابها وكيفية تكونها؛ ليظهر لهم كمال قدرة الصانع وحكمته^(٥).

«يقول الحق جل جلاله ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الدَّالَّةُ عَلَى بَاهِرِ قُدْرَتِهِ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾»^(٦).

«دلالات واضحة، وبراهين بيّنة، تدل على الخالق سبحانه.

ويقول تعالى: ﴿وَخَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَلْحَمْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ آيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الجمعة: ١٥].

«إن المنصفين من العباد إذا نظروا في هذه الدلائل النظر الصحيح علموا أنها مصنوعة، وأنه لا بد لها من صانع فأمّنوا به، وأقروا أنه الإله القادر على كل شيء،

والحكمة، علم بذلك، أنها خلقت للحق وبالحق، وأنها صحائف آيات، وكتب دلالات، على ما أخبر به الله عن نفسه و وحدانيته، وما أخبرت به الرسل من اليوم الآخر، وأنها مسخرات، ليس لها تدبير ولا استعصاء على مدبرها ومصرفها. فتعرف أن العالم العلوي والسفلي كلهم إليه مفتقرون، وإليه صامدون، وأنه الغني بالذات عن جميع المخلوقات، فلا إله إلا الله، ولا رب سواه^(١).

﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ينظرون بعيون عقولهم، ويعتبرون فيستدلون بهذه الأشياء على قدرة موجدتها وحكمة مبدعها ووحدانية منشئها^(٢).

«أما قوله تعالى: ﴿لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ فإنما خص الآيات بهم؛ لأنهم الذين يتمكنون من النظر فيه، والاستدلال به على ما يلزمهم من توحيد ربهم وعدله وحكمه ليقوموا بشكره، وما يلزم عبادته وطاعته^(٣).

«علمه كيفية الاستدلال على وحدانية الصانع، وردهم إلى التفكير في آياته والنظر في عجائب مصنوعاته وإتقان أفعاله ففي ذلك دليل على وحدانيته إذ لو كان في الوجود صانعان لهذه الأفعال، لاستحال

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٨.

(٢) مدارك التنزيل، النسفي، ١/ ١٤٨.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي، ٤/ ١٧٤.

(٤) لباب التأويل، الخازن، ١/ ٩٩.

(٥) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي، ٤/ ٢٠٥.

(٦) البحر المديد، ابن عجيبة، ٤/ ٣٣٤.

الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْلَمًا
فَكَسَوْنَا الْعِظْلَمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ
فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ
ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ [المؤمنون: ١٢-١٥].

« هذا شروع في الاستدلال على انفراد
الله تعالى بالخلق وبعظيم القدرة التي لا
يشاركه فيها غيره، وعلى أن الإنسان مريبوب
لله تعالى وحده، والاعتبار بما في خلق
الإنسان وغيره من دلائل القدرة ومن عظيم
النعمة »^(٣).

« يخبر تعالى عن خلقه الإنسان آدم
وذرئته وفي ذلك تتجلى مظاهر قدرته
وعلمه وحكمته، والتي أوجبت عبادته
وطاعته ومحبته وتعظيمه وتقديره »^(٤).

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا
خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ
وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ
لَكَنُفِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الروم: ٨].

« وهو الدلالة على توحيده وقدرته »^(٥).
« وهذا حث لهم على إعمال الفكر
السليم الموصل إلى معرفة الله و وحدانيته
بالنظر في أنفسهم وما حولهم من مشاهد
الكون »^(٦).

« أي: يعلمون الله بدلائل الأنفس في

ثم إذا أمعنوا النظر ازدادوا إيقانًا وزال عنهم
اللبس، فحيثئذ استحكم علمهم وعدوا في
زمرة العقلاء الذين عقلوا عن الله مراده في
أسرار كتابه »^(١).

﴿إِنِّي لَقَوِيٍّ يَقُولُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ﴾
﴿تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ﴾ يعني: هذه دلائل الله،
وعلامة وحدانيته »^(٢).

التفكر في خلق الله عبادة، لا بد لنا من
القيام بها لتزداد إيماننا مع إيماننا، بل ونصل
لدرجة اليقين، كذلك نستشعر عظمة الله
سبحانه وقدرته و وحدانيته، فهو إله واحد
بلا شريك، مدبر للكون بلا قصور.

٢. دلائل النفس.

لقد أمرنا الله سبحانه وتعالى بالنظر
والتفكر في أنفسنا، كيف خلقنا الله من
العدم فبدأ بخلقنا من الطين، ثم جعل الخلق
بعد ذلك من نقطة، ثم خلق النطفة علقه،
وخلق العلقه مضغ، ثم خلقها عظامًا،
وكساها بعد ذلك لحماً، ثم تدرج في الخلق
وبعد حين أماته، وهذه دلائل قدرته سبحانه
على الإيجاد والإماتة، ليختبرنا ماذا سنفعل
في هذه الحياة الدنيا.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن
سُلْطَانٍ طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً فِي فَراغٍ
مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النَّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا

(١) لباب التأويل، الخازن، ٤/ ١٢٢.

(٢) تفسير السمرقندي، ٣/ ٢٧٦.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٨/ ٢٢.

(٤) أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري، ٣/ ٥٠٧.

(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٤/ ٨.

(٦) التفسير المنير، الزحيلي، ٢١/ ٥٤.

ذلك من الناس فقد اهتدى إلى ما أريد منه، ومن لم يعقل ذلك فهو بمنزلة عديم العقل^(٥).

«دعوة القرآن للتفكير في الأنفس لتفتح مغاليق القلوب لتدبر هذا الخلق العجيب، فهذا الإنسان بجميع خصائصه وسماته كان كامناً في تلك النقطة الصغيرة الدقيقة التي لا تراها العين المجردة بعد أن أنستهم الألفة هذا الأمر العجيب»^(٦).

وهكذا نجد أن الله سبحانه وتعالى لم يحجر على عقولنا، بل أمرنا بالنظر والتفكير والتدبر في آيات الله الكونية، وفي أنفسنا لنزداد إيماناً و يقيناً بوحدانيته سبحانه وتعالى، وبالتالي نزداد خشوعاً وتعظيماً له سبحانه، أما الذين عطلوا عقولهم وألغوها فهم لا يقلون عن الحيوانات، بالإضافة إلى العقوبة التي تنتظرهم يوم القيامة، لأنهم لو أعملوا عقولهم لاهتدوا، فكل الأنفس قابلة للإيمان والاهتداء وكل شيء بيد الله سبحانه وتعالى. اللهم ألهم نفوسنا تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها، اللهم آمين.

سائر الأحوال ويتفكرون في خلق السماوات والأرض بدلائل الآفاق»^(١).

«والمعنى: أن أسباب التفكير حاصلة لهم، وهي أنفسهم لو تفكروا فيها كما ينبغي، لعلموا وحدانية الله، وصدق أنبيائه»^(٢).

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ رَأْسٍ ثُمَّ يَنْظُرُكُمْ مِنْ ظُهُورِكُمْ ثُمَّ يُدْخِلُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ ثُمَّ يَخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِيَكونُوا شُيُوخاً وَمِنْكُمْ مَنْ يَمُوتُ مِنْ قَبْلٍ وَلَنَبْلُغُوا أَجْلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [غافر: ٦٧].

«وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» أي: ما في هذه الأحوال العجيبة من القدرة الباهرة الدالة على توحيده وقدرته هو الذي يحيي ويميت، فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون، أي: يكونه من غير كلفة ولا معاناة ولا تعب وكل ذلك من كمال قدرته على الإحياء والإماتة وسائر ما ذكر من الأفعال الدالة على قدرته»^(٣).

«أي: لكي تعقلوا توحيد ربكم وقدرته»^(٤).

«دلالة على وجود هذا الخالق الخلق البديع، وعلى انفراده بالإلهية، وعلى أن ما عداه لا يستحق وصف الإلهية، فمن عقل

(١) الباب في علوم الكتاب، ابن عادل، ٣٨٩/١٥.

(٢) فتح القدير، الشوكاني، ٢٤٨/٤.

(٣) لباب التأويل، الخازن، ٨٠/٤.

(٤) معالم التنزيل، البغوي، ١٥٨/٧.

(٥) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٩٧-١٩٦/٢٤.

(٦) البناء العقلي في ضوء القرآن الكريم، رسالة ماجستير، ميساء قلجة، ص ٥٥.

ثانيًا: الأحكام الشرعية:

القرآن الكريم احترام العقل وأولاه اهتمامًا بالغًا، وسمح له بالتفكير والتدبر في الآيات الكونية المرئية المنظورة، والآيات المسطورة في القرآن الكريم ودم من يعطل عقله عن التفكير والتدبر، لكن في الأحكام الشرعية، فالعقل لا يستطيع أن يحيط بكل شيء علمًا، بعض الأحكام التي شرعت لا يعلم كنهها إلا الله وحده، فلا يستطيع العقل فهم الحكمة المرادة منها، وقد جعلها الله تعالى من الأمور الغيبية، فلا يجوز للعقل الخوض في أمور الغيب، بينما أمور الاجتهاد والقياس والأمور التي في إمكانية العقل القيام بها، فهذا مسموح الخوض فيه، وعند تعارض العقل والنقل يقدم النقل على العقل.

تعرف الأحكام الشرعية بأنها ما يصدر عن الإنسان من الأقوال والأفعال بالنسبة للأخيرة، فتبين ما يجب فعله وما يجب تركه، وما يترتب على الفعل والترك من استحقاق الثواب والعقاب في الحياة الأخرى، لذلك فإن الأحكام الشرعية تتصف بالشمولية، فهي موقوفة من الله سبحانه وتعالى لتراعي الحياتين كليهما، الآخرة والدنيا، أما واضح الأحكام الشرعية فهو الله سبحانه وتعالى، وهو الذي يوجب ما يشاء بيده الأمر وهو على كل شيء قدير.

الأحكام الشرعية التي تتعلق بالعقيدة ليس للعقل فيها أي دور فلا يسمح بالاجتهاد في أمور العقيدة؛ لأن الدليل فيها قطعي الثبوت، قطعي الدلالة، فلا مجال لإعمال العقل فيها.

«العقل هو الذي دلنا على وجود الخالق، وصحة رسالة رسوله الذي أيده بالمعجزات، تلك المعجزات التي تدل على صدق نبوة الأنبياء باستعمال الفكر والنظر. ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «المعقول الصريح لا يخالف المنقول الصحيح»^(١).

العقل لن يهتدي إلا بالشرع، والشرع لم يتبين إلا بالعقل، فالعقل كالأس والشرع كالبناء، ولن يغني أس ما لم يكن بناء، ولن يثبت بناء ما لم يكن أس، وأيضًا فالعقل كالبصر والشرع كالشعاع، ولن يغني البصر ما لم يكن شعاع من خارج، ولن يغني الشعاع ما لم يكن بصر.

فلهذا قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ۝ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُكُمْ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝﴾ [المائدة: ١٥-١٦].

فالعقل لا يهدي إلى تفاصيل الشرعيات

(١) درء تعارض العقل والنقل، ابن تيمية، ٨/ ٩١، العقل والنقل عند ابن رشد، أبو أحمد جامي، ١/ ٧٨.

والشرع تارة يأتي بتقرير ما استقر عليه العقل، وتارة بتنبية الغافل وإظهار الدليل حتى يتنبه لحقائق المعرفة، وتارة بتذكير العاقل حتى يتذكر ما فقد، وتارة بالتعليم وذلك في الشرعيات وتفصيل أحوال المعاد، فالشرع نظام الاعتقادات الصحيحة والأفعال المستقيمة والدادل على مصالح الدنيا والآخرة، ومن عدل عنه فقد ضل سواء السبيل، وإلى العقل والشرع أشار بالفضل والرحمة بقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣].

«وعنى بالقليل المصطفين الأخيار»^(١).

دور العقل في إدراك الغيبات:

إن أول ركن بني عليه الإسلام، صقل العقول بصقال التوحيد، وتطهيرها من لوث الأوهام، وسعادة الأمم لا تتم إلا بصفاء العقول من كدرات الخرافات وصدأ الأوهام بل إن خرافة قد تقف بالعقل عن الحركة الفكرية، فيسهل عليه قبول كل وهم وتصديق كل ظن، وفوق ذلك ما تجلبه من الأوهام على النفوس من الوحشة وقرب الدهشة، والخوف مما لا يخيف، والفرع مما لا يفرع^(٢).

(١) معارج القدس في مدارج معرفة النفس، أبو حامد الغزالي، ١/٥٩.

(٢) انظر: مقام العقل في الإسلام، د. محمد عمارة، ص ٤٩.

أما في الغيبات فإن دور العقل منفي تمامًا، ولهذا لا يقبل حكم العقل على غيبات، وجعل الشرع موطن التصديق بالغيبات الإيمان المطلق وليس العقل، ولا غرابة في ذلك، إذ أن جميع الناس يتفقون على أن العقل حادث ومخلوق، ويتغير بتغير المعلومات التي تدخل إليه، وأيضًا يتغير بالقدرة علي الاستفادة من تلك المعلومات، ولا قدرة للمخلوق أن يحيط بالخالق سبحانه، والغيب من اختصاصات الخالق، لذا فلا يدرك الغيب أصلًا، وبعض ما يعلم عنه إنما يكون من خلال النصوص الصحيحة.

دور العقل في الأحكام الشرعية:

والأصل أن العقل لا سلطان له في تغيير الأحكام الثابتة بالكتاب والسنة، هذا إذا افترضنا أصلًا أن هناك تناقضًا بين أحكام الشريعة وما يتوصل إليه العقل السليم، مع أن هذا الافتراض مدفوع، فالعقل السليم ينتهي دائمًا عند مراد الشرع، حتى بالنسبة لأحكام العبادات التي قد لا ينهض العقل لإدراك الحكمة من فرضيتها، فإنه بالعقل يمكن إدراك العديد من الحكم الجليلة التي تتخفى وراء الحكم الشرعي والتي تدرك بالممارسة والتأمل.

وآفة الناس أنهم تركوا المساحة الواسعة التي أفردتها الشرع لعقولهم ولم يسعوا إلا

القسم كثير من مسائل الاعتقاد لا سيما التفصيلية منها، فهذه لا يستقل العقل بمعرفتها؛ بل لابد من اعتماده على الوحي، هذا الموقف الوسط بخلاف ما عليه أصحاب الفرق الضالة، فمنهم من اعتمد على العقل وأعرض عن الوحي بالكلية كالفلاسفة، أو أسقط حكم الوحي عند التعارض المفترض كما هو حال أكثر المتكلمين، ومنهم من جعل الحق والصواب فيما تشرق به نفسه وتفيض به روحه، وإن خالف هذا أحكام العقل الصريحة أو نصوص الوحي الصحيحة، كما هو حال بعض المتصوفة، والعقل كذلك له طاقة وقدرة محدودة ولا يستطيع أن يخضع كل المعارف وحقائقها لقدرته.

ثالثاً: التمييز بين الحق والباطل:

من فضل الله علينا أن منَّ علينا بنعمة العقل كي نميز به بين الحق والباطل والصواب والخطأ، وبين ما ينفعنا وما يضرنا فله الحمد على هذه النعمة، ومن الآيات القرآنية الدالة على ذلك نذكر بعضاً منها.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنُوا وَإِذَا خَلَا بِمَعْشُرِهِمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [البقرة: ٧٦].

للكلام في المناطق التي ملأها الشرع على نحو تفصيلي، وهذا مما يطعن في سلامة نوايا هؤلاء الناس.

وليس للعقل دور في كل العلوم على سواء، فالعلوم ثلاثة أقسام:

٨. العلوم الضرورية: وهي التي لا يمكن التشكيك فيها، إذ أنها تلزم جميع العقلاء ولا تنفك عنهم، كعلم الإنسان بوجوده وأن اثنين أكثر من الواحد، وكالسماء فوقنا والأرض تحتنا إلى غير ذلك مما يسمى بقوانين العقل الضرورية.

٩. العلوم النظرية: وهي التي تكتسب بالنظر والاستدلال، وهذا النظر لابد في تحصيله من علم ضروري يستند إليه حتى يعرف وجه الصواب فيه، ويدخل في هذا القسم كثير من العلوم كالطبيعات والطب والصناعات، فهذه العقل له مجال رحب في معرفتها وإدراكها والتوسع فيها.

١٠. العلوم الغيبية: وهذه لا تعلم بواسطة العقل المجرد وحده، بل لابد للعقل إذا أراد أن يعلمها أن يكون له طريق آخر للعلم به؛ كعلمه بما يكون في البلد القاصي عنه، وعلمه بما في اليوم الآخر من بعث وحساب وجزاء، وهذا لا يعلم إلا عن طريق الخبر، ويدخل في هذا

«عن ابن عباس: ﴿وَإِذَا خَلَا بِعَضْبُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾، يعني: بما أمركم الله به. فيقول الآخرون: إنما نستهزئ بهم ونضحك»^(١).

«روي عن ابن عباس رضي الله عنه أن منافقي أهل الكتاب كانوا إذا لقوا أصحاب محمد صلى عليه وسلم قالوا لهم: آمنا بالذي آمنت به، نشهد أن صاحبكم صادق، وأن قوله حق، ونجده بنعته وصفته في كتابنا، ثم إذا خلا بعضهم إلى بعض قال الرؤساء -كعب بن الأشرف، وكعب بن أسد، ووهب بن يهودا وغيرهم- أتحدثونهم بما فتح الله عليكم في كتابه من نعته وصفته ليحاجوكم به»^(٢).

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ متصل بكلامهم من التوبيخ والعتاب، أي: ألا تلاحظون فلا تعقلون هذا الخطأ الفاحش، وهو أن ذلك حجة لهم عليكم، فالمنكر عدم التعقل ابتداء، أو أتفعلون ذلك فلا تعقلون بطلانه مع وضوحه حتى تحتاجون إلى التنبيه عليه، فالمنكر حيثئذ عدم التعقل بعد الفعل»^(٣).

فهم كانوا يعرفون الحق وينكرونه، من أقوال المفسرين يتبين أن بالعقل يستطيع الإنسان التمييز بين الحق والباطل.

قال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَیْرَةٍ وَلَا

سَائِرَةٍ وَلَا وَصِيْلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٣﴾﴾

[المائدة: ١٠٣].

﴿وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾

بتحريم ذلك ونسبته إلى الله سبحانه وتعالى، ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: الحلال من الحرام والمبيح من المحرم، أو الأمر من الناهي، ولكنهم يقلدون كبارهم، وفيه أن منهم من يعرف بطلان ذلك، ولكن يمنعهم حب الرياسة وتقليد الآباء أن يعترفوا به»^(٤).

فهم يعرفون الحلال والحرام ويميزونه، لكن حبهم لتقليد الآباء هو الذي أعمى بصائرهم عن اتباع الحق.

قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَبْتُكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يونس: ١٦].

«وأنكم تعلمون صدقي وأمانتي منذ نشأت بينكم إلى حين بعثني الله عز وجل، لا تتقدون علي شيئا تغمصوني به؛ أفليس لكم عقول تعرفون بها الحق من الباطل»^(٥).

«وقل لهم: إنني إنما جئتكم بهذا القرآن بإذن الله ومشيتته، ولو شاء الله أن لا أتله عليكم ما تلوته، ولو شاء أن لا يعلمكم به بإرسالني إليكم، لما أرسلني، ولما أدراكم

(١) جامع البيان، الطبري، ٢/ ٢٥١.

(٢) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل، ٢/ ١٩٧.

(٣) روح البيان، إسماعيل حقي، ١/ ١٦٧.

(٤) أنوار التنزيل، البيضاوي، ٢/ ١٤٦.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ٢٥٣.

في تدبر الأمثال»^(٣).

﴿كَذَلِكَ نَقْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ

يَعْقِلُونَ﴾ أي: ومثل هذا التفصيل البديع بضرب الأمثال الكاشفة للمعاني، المقربة لها إلى العقول، إذ تنقل المعقول إلى المحسوس التي هي به الصق، ولإدراكه أقرب-نفصل حججنا وآياتنا لقوم يستعملون عقولهم في تدبر الأمثال، واستخراج مغزاها ومراميها للوصول إلى الأغراض التي لأجلها ضربت، ولمثلها استعملت، فيستبين الرشد من الغي، والحق من الباطل، ولأمر ما كثرت الأمثال في جلاء الحقائق، وإيضاح ما أشكل منها على الناظرين»^(٤).

الواجب استعمال العقول في التدبر والتفكير للآيات والأمثال التي يضر بها الله لنا كي ننجو من الوقوع في المحذور، والخوف كذلك لا يكون إلا منه سبحانه، فكل شيء بيده، فلم نخاف المخلوقين وهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً، فكيف سيقومون بنفعنا أو ضررنا؟! نسأل الله السلامة.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ

ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠].

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ إنكار توبيخي فيه بعث لهم على التدبر في أمر الكتاب والتأمل في أحكامه»^(٥).

(٣) أنوار التنزيل، البيضاوي، ٢٠٦/٤.

(٤) تفسير المراغي، ٤٤/٢١.

(٥) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٥٨/٦.

به، ولكنه شاء أن يمن عليكم بهذا العلم لتتهدوا، وتكونوا خلائف في الأرض. فقد عشت فيكم وبينكم سنين طويلة من عمري لم أبلغكم خلالها شيئاً، لأن الله لم يكن قد أوحى إلي برسالته، فلما أوحى إلي، وأمرني بأن أبلغكم أوامره فعلت، أليس لكم عقول تميزون بها بين الحق والباطل؟»^(١).

رابعاً: التدبر في آيات القرآن:

ذكر الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم من الآيات التي تبين لنا أن الغرض منها هو التدبر والتأمل، وذلك ليزداد الإيمان بالله وتقوى العقيدة، ونصل إلى مرتبة اليقين بالله تعالى، ولا يعترينا شك في أي شيء مما وصلنا على لسان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وأنه من لدن حكيم خبير، قال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨].

﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: يستعملون عقولهم في تدبر الأمور، وتخصيصهم بالذكر مع عموم تفصيل الآيات للكل لأنهم المتفكرون بها»^(٢).

﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يستعملون عقولهم

(١) أيسر التفاسير، أسعد حومد، ١٣٨١/١.

(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٥٩/٧.

واتبعنا التعاليم والمبادئ الموجودة في ديننا الحنيف، لاهتدينا بأمر الله وكنا من الفائزين في الدنيا والآخرة.

خامساً: آثار المهلكين من الأمم السابقة:

من وسائل تربية الله تعالى للبشر، ذكره القصص لأخذ العبرة والامثال لحكم الله سبحانه وتعالى، فذكر لنا قصص الأمم الغابرة التي حادت عن منهج الله سبحانه، فبين الله عز وجل سته فيهم وذلك بالخسف والدمار وإنزال العذاب عليهم، وترك من آثار ديارهم المدمرة للتدبر وليكونوا عبرة لغيرهم.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَا يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ١٠٩].

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يعني: يتفكرون ويعتبرون بهم فيؤمنون^(٥).

«فتتدبروا سنن الله في الغابرين؟ أفلا تعقلون فتؤثروا المتاع الباقي على المتاع القصير؟»^(٦).

قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الصافات: ١٣٧] وَأَيُّهَا أَفَلَا تَعْقِلُونَ

(٥) لباب التأويل، الخازن، ٢/ ٥٦٠.
(٦) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٤/ ٢٠٣٥.

«وهذا كالحث على التدبر للقول؛ لأنهم كانوا عقلاء، لأن التدبير من لوازم العقل، فمن لم يتدبر فكأنه خرج عن العقل»^(١).

قال تعالى: ﴿قُلْ أَوْشَاءَ اللَّهِ مَا تَكُونُ مِنْكُمْ وَلَا أَدْرِيكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [يونس: ١٦].

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفلا تستعملون عقولكم بالتدبر والتفكير، فتعلموا أنه ليس من طوق البشر، بل هو من عند الحكيم العليم الواحد القهار^(٢).

«فلو أعلمتم أفكاركم وعقولكم، وتدبرتم حالي وحال هذا الكتاب، لجزمتكم جزماً لا يقبل الريب بصدقه، وأنه الحق الذي ليس بعده إلا الضلال، ولكن إذا أبيتم إلا التكذيب والعناد، فأنتم لا شك أنكم ظالمون»^(٣).

«أفلا تعقلون أنه ليس من قبلي، أي: أفلا تستعملون عقولكم بالتدبر والتفكير فيه، لتعلموا أنه ليس إلا من الله»^(٤).

مما سبق نجد أننا لو تدبرنا كتاب الله وآياته المسطورة والمنظورة بعقولنا وفطرتنا السليمة، كما أمرنا ربنا تبارك وتعالى،

(١) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل، ٤٥٣/ ١٣.

(٢) البحر المديد، ابن عجيبة، ٤٥٨/ ٢.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٥٩.

(٤) التفسير المنير، الزحيلي، ١٢٧/ ١١.

سادسًا: حقيقة الحياة الدنيا والحياة الآخرة

في القرآن الكريم العديد من الآيات التي يدعونا الله عز وجل من خلالها للمقارنة بين الدنيا وشقائقها، والدار الآخرة بنعيمها والفوز بالجنة، والذي يتدبر الأمر هو الذي يمتلك عقلًا واعيًا، ويحسن المقارنة فيترك متاع الدنيا القليل الزائل ويعمل من أجل النعيم الدائم في الآخرة.

قال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ٣٢].

« أَفَلَا تَعْقِلُونَ » أي: أفلا يكون لكم عقول، بها تدركون، أي الدارين أحق بالإثارة^(٥).

« أفلا تعقلون إن الآخرة خير من الدنيا فيعملون لها »^(٦).

« نصيحة القرآن للعقلاء بأن لا يغتروا بالحياة الدنيا، ويهملوا شأن الآخرة وهي خير للمتقين »^(٧).

في الآية السابقة نلاحظ كيف أن القرآن ينكر على الذين يعقلون كيف لا يتدبرون الآيات، ويشغلون أنفسهم بالدنيا وما فيها من مظاهر اللهو واللعب، ويتركون الإعداد

والمعنى تمرون على منازلهم في ذهابكم إلى الشام ورجوعكم منه نهارًا وليلاً أفلا تعقلون ما تشاهدونه في ديارهم من آثار عقوبة الله النازلة بهم، فإن في ذلك عبرة للمعتبرين وموعظة للمتدبرين^(١).

«أي: أفلا تعتبرون بهم كيف دمر الله عليهم وتعلمون أن للكافرين أمثالها؟»^(٢).

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يقول: أفليس لكم عقول تتدبرون بها وتنفكرون^(٣).

«تشاهدون ذلك فلا تعقلون حتى تعتبروا به وتخافوا أن يصيبكم مثل ما أصابهم»^(٤).

ويظهر من خلال ما نقل من أقوال المفسرين أننا أن معنى العقلان في الآيات السابقة يدور حل الاعتبار والاتعاظ بما تضمنته السنن الجارية من دروس في حياة الأفراد والأمم، فلنعتبر مما حدث في الأمم السابقة، وننظر إلى ما آلت إليه الأمم التي حادت عن المنهج السليم، الذي أرسل الله لهم به الرسل للهداية والنجاة من العقاب، وتدبرنا ذلك في أنفسنا بعقولنا وبصائرنا، ترانا ماذا كنا فاعلين؟

فالسعيد من وعظ بغيره، نسأل الله السلامة في الدنيا والآخرة.

(١) جامع البيان، الطبري، ١٣/ ٣٨٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ٣٨.

(٣) جامع البيان، الطبري، ٢١/ ١٠٥.

(٤) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ٢٠٥.

(٥) تفسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٥٤.

(٦) لباب التأويل، الخازن، ٢/ ١٠٩.

(٧) أيسر التفاسير، الجزائري، ٢/ ٥٢.

وأما من نظر إلى عاجل طفيف منقطع، يفوت نعيمًا عظيمًا باقيا فأنى له العقل والرأي؟»^(٤).

مما سبق نلاحظ أن القرآن الكريم ذكر أن العاقل هو الذي يقارن بعقله بين الدنيا ومتاعها الزائل، والآخرة ونعيمها الباقي ويختار بعقله السليم ما هو خير له في دنياه وآخرته، والشقي من يؤثر الدنيا ومتاعها القليل الزائل ويستبدلها بالخلود في الجنة ونعيمها المقيم، يبيع آخرته بعرض ومتاع سقط لا قيمة له، مقارنة بما كان ينتظره في الجنة لو أعد له واهتدى. نسأل الله السداد والتوفيق.

سابعًا: الأمثال القرآنية:

ضرب المثل نوع من أنواع تقريب العلم وفهمه لعقول الناس، وهو وسيلة من الوسائل التعليمية التي نهجها القرآن منها القصص والمثل وغيرها، وذلك لتقريب الصورة للأذهان، والاستفادة من الأحكام والأوامر والنواهي والتدبر والتفكر في آيات الله، والحذر من الوقوع في المعصية، والتعرض لغضب الله والعياذ بالله.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرُ شَيْءٍ جَدَلًا﴾^(٥) [الكهف: ٥٤].

للآخرة التي هي خير وأبقى لمن أخلص في طلبها واستعمل دنياه في تحصيلها.

قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلَهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَاللَّذَّارِ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾^(٦) [الأعراف: ١٦٩].

﴿وَاللَّذَّارِ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ لدوامها، وخلوص منافعها ولذاتها عن المضار والآلام، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ذلك حتى تتقوا ما أنتم عليه من الكفر والمعاصي، ولا توثرون الأدنى الفاني، على الأعلى الباقي^(١).

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فيعلموا ذلك، ولا يستبدلوا الأدنى الحقيق المؤدي إلى العقاب بالنعيم الكبير المخلد في دار الثواب^(٢). ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ يعني: أفلا يعقل هؤلاء الذين يرضون بعرض الدنيا أن ما في الآخرة خير وأبقى لأنها دار المتقين^(٣).

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفلا يكون لكم عقول توازن بين ما ينبغي إثاره، وما ينبغي الإيثار عليه، وما هو أولى بالسعي إليه، والتقديم له على غيره. فخاصية العقل النظر للعواقب.

(١) محاسن التأويل، القاسمي، ٣٤٤/٤.

(٢) البحر المديد، ابن عجيبة، ٢٧٧/٢.

(٣) لباب التأويل، الخازن، ٢٦٥/٢.

(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٠٧.

القرآن للناس من كل مثل، ووعظناهم فيه من كل عظة، واحتجنا عليهم فيه بكل حجة ليتذكروا فينبوا، ويعتبروا فيتعظوا، وينزجروا عما هم عليه مقيمون من الشرك بالله وعبادة الأوثان^(٥).

وهكذا نرى أن الغاية من ضرب المثل هو تقريب المعنى للأفهام، وتوضيح الصورة لأخذ العبرة، والانقياد والطاعة وزيادة الطمأنينة.

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْبَحِ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: ٢٤].

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: بضرب الأمثال وتدبرها^(٦).

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: أفلا تعتبرون وتتعظون؟ والغرض التفريق بين أهل الطاعة والإيمان، وأهل الجحود والعصيان^(٧).

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ تتعظون بضرب الأمثال فترجعون عن غيكم^(٨).

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أي: تتعظون بضرب الأمثال والتأمل فيها^(٩)، من الآية السابقة نجد أن ضرب المثل كان للتدبر والاتعاظ.

﴿وَلَقَدْ صَرَفْنَا﴾ أي: بَيَّنَّا ﴿فِي هَذَا آفْزَةً إِنَّ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ أي: ليتذكروا ويتعظوا^(١).

﴿مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ من كل خبر يحتاجون إليه مضروب يعتبرون به، ومن جملة ما مر من مثل الرجلين، ومثل الحياة الدنيا، أو من كل نوع من أنواع المعاني البديعة الداعية إلى الإيمان، التي هي، في الغرابة والحسن واستجلاب القلوب، كالمثل المضروب، ليلتقوه بالقبول^(٢).

﴿مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ ضربناه للناس: تقريرا لأفهامهم^(٣).

«يخبر الله تعالى عن عظمة القرآن، وجلالته، وعمومه، وأنه صرف فيه من كل مثل، أي: من كل طريق موصل إلى العلوم النافعة، والسعادة الأبدية، وكل طريق يعصم من الشر والهلاك، ففيه أمثال الحلال والحرام، وجزاء الأعمال، والترغيب والترهيب، والأخبار الصادقة النافعة للقلوب، اعتقادًا، وطمأنينة، ونورًا، وهذا مما يوجب التسليم لهذا القرآن وتلقيه بالانقياد والطاعة، وعدم المنازعة له في أمر من الأمور»^(٤).

«يقول عز ذكره: ولقد مثلنا في هذا

(٥) جامع البيان، الطبري، ٤٨/١٨.

(٦) محاسن التأويل، القاسمي، ٨٦/٦.

(٧) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، ٩/٢.

(٨) البحر المديد، ابن عجيبة، ٥٢١/٢.

(٩) السراج المنير، الشربيني، ٥٢/٢، التفسير المظهر، ٨٠/٥.

(١) لباب التأويل، الخازن، ١٦٨/٣.

(٢) البحر المديد، ابن عجيبة، ٢٨٢/٣.

(٣) أوضح التفاسير، الخطيب، ٣٥٩/١.

(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٤٨٠.

ثمار استعمال العقل

الحمد لله على نعمة العقل التي أنعم الله تعالى بها علينا، فبه عرفنا الله ربنا وبه عبدناه، ونسير كذلك أمرنا في الحياة الدنيا، وبه ميزنا عن سائر خلقه من الطيور والحيوانات، وبه نميز بين الحق والباطل، وبواسطته تعلمنا الحلال من الحرام، وتعلمنا العلوم الشرعية والدنيوية، وبه جاهدنا أنفسنا والشيطان.

أولاً: الهداية:

«إن القرآن هو كتاب العقل، وأنه بأكمله دعوة لتحرير العقل من عقاله، وأنه يدعونا -بعبارات تختلف في أسلوبها وتتحدا في معناها- إلى استعمال العقل ووزن كل شيء بميزانه.

قال تعالى: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ (٦٦) ﴿أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفْلا تَعْقِلُونَ﴾ (٦٧) [الأنبياء: ٦٦-٦٧].

«أَفْلا تَعْقِلُونَ» يعني: أليس لكم عقل تعقلون به أن هذه الأصنام لا تستحق العبادة؟» (٤).

«أَفْلا تَعْقِلُونَ» أن من ليس له ذهن ولا قوة ولا منفعة ولا مضرة أن لا تعبده» (٥).

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ﴾ (٣) [محمد: ٣].

«كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ» أي: مثل ذلك البيان الواضح، بين الله أمر كل من الفريقين المؤمنين والكافرين بأوضح بيان وأجلى برهان؛ ليعتبر الناس ويتعظوا» (١).

وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ أَخَذُوا مِنَ دُونِ اللَّهِ أُولِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنَكَبُوتِ﴾ [العنكبوت: ٤١].

«هذا المثل وغيره من الأمثال التي في القرآن، نضربها للناس تنبيهاً لهم، وتقريباً لما بعد من أفهامهم» (٢).

«أي: لأجلهم ولانتفاعهم وتعليمهم، لكونها من الطرق الموضحة للعلوم، ولأنها تقرب الأمور المعقولة بالأمور المحسوسة، فيتضح المعنى المطلوب بسببها، فهي مصلحة لعموم الناس» (٣).

وهكذا نرى كيف ضرب الله تعالى المثل لتقريب الصورة وسهولة الاستيعاب، وأخذ العبرة من الأمثال.

(١) صفوة التفاسير، الصابوني، ٣/ ١٩١.

(٢) فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ٢٣٦.

(٣) تفسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٣١.

(٤) لباب التأويل، الخازن، ٣/ ٢٢٩.

(٥) تفسير السمرقندي، ٢/ ٤٣١.

عن منازعة الوهم والعادة، وفي ذلك دلالة على أن الهداية تحصل بفعل الله وقبول النفس لها^(٧).

مما سبق نجد أن الله سبحانه وتعالى أكرم الإنسان بالعقل، وبهذا العقل السليم اهتدى لوحداية الله عز وجل، فأكرمه الله تعالى بالهداية والعلم، مما زاد تقواه وخشيته لله تعالى، وهذا فضل من الله ومنه لذوي العقول السليمة والفطرة الصافية.

ثانيًا: مطابقة العلم للعمل:

من العار أن يكون الإنسان متعلمًا لأمر معين، ويعلمه لغيره، وهو أولى أن يقوم بالعمل بما يعلم، قال صلى الله عليه وسلم مادحًا من تعلم وعلم، أي: من عمل بعلمه، فالإنسان العاقل هو من يقوم بالعمل بما يعمل، عن عثمان رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (خيركم من تعلم القرآن وعلمه)^(٨).

«قال الحكماء: العقل رائد الروح، والعلم رائد العقل، وحياة المروءة الصدق، وحياة الروح العفاف، وحياة الحلم العلم، وحياة العلم الفهم، وحياة الفهم العمل، وحياة العمل القبول»^(٩).

(٧) أنوار التنزيل، البيضاوي، ٣٩/٥.

(٨) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب خيركم من تعلم القرآن وعلمه، رقم ١٩٢/٥٠٢٧، ٦/١٩٢.

(٩) المجالسة وجواهر العلم، الدينوري،

وقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أليس لكم عقل تعرفون هذا؟^(١).

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفلا تتدبرون ما أنتم فيه من الضلال والكفر الغليظ، الذي لا يروج إلا على جاهل ظالم فاجر؟^(٢).

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: ألا تفكرون فلا تعقلون قبح صنيعكم؟^(٣).

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أي: أفلا تتدبرون ما أنتم فيه من الضلال والكفر الذي لا يدين به إلا كل جاهل ظالم فاجر؟^(٤).

قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ١٨].

«قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ أي: المتصفون بهذه الصفة هم الذين هداهم الله في الدنيا والآخرة، ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ أي: ذوو العقول الصحيحة، والفطر المستقيمة»^(٥).

«وقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ أي: أرشدهم الله إلى الحق. وقوله: ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ أي: أولو العقول»^(٦).

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ لدينه، ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ العقول السليمة

(١) العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم، ابن الوزير اليماني، ١١٤/١.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣٥١/٥.

(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٧٦/٦.

(٤) التفسير المنير، الزحيلي، ٨٤/١٧.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٩٠/٧.

(٦) تفسير السمعاني، ٤٦٤/٤.

و«قال بعض الحكماء: أفضل العقل معرفة الرجل نفسه، وأفضل العلم وقوف الرجل عند علمه»^(١).

قال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤].

«﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ قيل: إن من وعظ الناس يجتهد أن ينفذ موعظته إلى القلوب، فإذا خالف قوله فعله كان ذلك سبب تنفير القلوب عن قبول موعظته»^(٢).

«العقل يحث صاحبه أن يكون أول فاعل لما يأمر به، وأول تارك لما ينهى عنه، فمن أمر غيره بالخير ولم يفعله، أو نهى عن الشر فلم يتركه، دل على عدم عقله وجهله، خصوصاً إذا كان عالماً بذلك، قد قامت عليه الحجة»^(٣).

«وقال الحراي: ولما كان فيهم من أشار على من استهداه بالهداية لاتباع محمد صلى الله عليه وسلم، ولم يهدوا أنفسهم لما أرشدوا إليه غيرهم، أعلن تعالى عليهم بذلك نظماً لما تقدم من نقض عهدهم ولبسهم وكتمهم بما ظهر من نقص عقولهم، في أن يظهر طريق الهدى لغيره ولا يتبعه، فأخرجهم بذلك عن حد العقل الذي هو

أدنى أحوال المخاطبين، وزاد في تبكيتهم بجملة حالية حاكية تلبسهم بالعلم والحكمة الناهية عما هم عليه»^(٤).

«وقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ استفهام عن انتفاء تعقلهم استفهاماً مستعملاً في الإنكار والتوبيخ، نزلوا منزلة من انتفى تعقله فأنكر عليهم ذلك، ووجه المشابهة بين حالهم وحال من لا يعقلون أن من يستمر به التغفل عن نفسه وإهمال التفكير في صلاحها مع مصاحبة شيبين يذكرانه، قارب أن يكون منفياً عنه التعقل»^(٥).

وهكذا نجد التقريع والذم لمن لا يعمل بما يعلمه للناس.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].
«لَمَّا تَقُولُوا مَا لَا تَعْمَلُونَ» [الصف: ٣-٢].

«تناول ذم من قال ما لا يفعله على أي وجه كان من مطلق أو مقيد بشرط»^(٦).
«هذا الاستفهام للتقريع والتوبيخ، أي: لم تقولون من الخير ما لا تفعلونه؟»^(٧).

«أي: لم تقولون الخير وتحثون عليه، وربما تمدحتم به وأنتم لا تفعلونه، وتنهون عن الشر، وربما نزهتم أنفسكم عنه،

(٤) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٩٢/١.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٤٧٧/١.
(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٧٩/١٨.
(٧) فتح القدير، الشوكاني، ٢٦١/٥.

٣٣٢/٤.
(١) المصدر السابق، ٤٩٣/٤.
(٢) لباب التأويل، الخازن، ٤٢/١.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٥١.

وعصمة من الشيطان، والترهيب من عدم العمل به، وأنه نزول إلى أسفل سافلين، وتسليط للشيطان عليه، وفيه أن اتباع الهوى، وإخلاد العبد إلى الشهوات، يكون سببا للخذلان»^(٤).

«هنا نفياً بضرب المثل للمكذبين بآيات الله المنزلة على رسوله الكريم بعد أن أيدها بالأدلة العقلية والكونية، وهو مثل من آتاه الله آياته فكان عالماً بها قادراً على بيانها، لكنه لا يعمل بها، بل يأتي عمله مخالفاً لعلمه. لذا سلبه الله ما آتاه»^(٥).

فالعمل المبارك المقبول هو ما كان عن علم، كذلك العمل الطيب المبارك هو الذي ينفع صاحبه ويعمل به، فيكون حجة له لا عليه، ويرفع الله درجاته في الجنة.

ثالثاً: الامتناع عن المعاصي:

السعيد الذي منحه الله تعالى عقلاً سليماً وقلباً عامراً بالتقوى والإيمان، فهو يكون بعيداً كل البعد عن المعاصي؛ لأن قلبه مضاء بنور الإيمان، وعقله النير وفطرته السليمة يصد بهما كل خطرات الشيطان، كذلك نفسه التي بين جنبيه تكون مطمئنة، تدعوه للعمل الصالح والطاعة والسلوك القويم الذي يرضي الله تعالى عنه، فلا يسلك سبل الشيطان الملتوية، بل يبتعد عن

وأنتم متلوثون به ومتصفون به. فهل تليق بالمؤمنين هذه الحالة الذميمة؟ أم من أكبر المقت عند الله أن يقول العبد ما لا يفعل؟ ولهذا ينبغي للأمر بالخير أن يكون أول الناس إليه مبادرة، وللناهي عن الشر أن يكون أبعد الناس منه»^(١).

قال تعالى: ﴿وَأَقْلَ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَاسْلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾^(١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثَ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثَ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصِصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا بِظُلُمٍ مِّنْ يَّهْدِي اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَى وَمَنْ يُضِلِلْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٨].

«قال قتادة: هذا مثل ضربه الله لمن عرض عليه الهدى فلم يقبله»^(٢).

«أنه مال إلى الدنيا ورغب فيها وآثرها على الآخرة واتبع هواه، أي: اتبع ما يهواه، وترك العمل بما يقتضيه العلم الذي علمه الله، وهو حطام الدنيا»^(٣).

«وفي هذه الآيات الترغيب في العمل بالعلم، وأن ذلك رفعة من الله لصاحبه،

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٥٨.

(٢) لباب التأويل، الخازن، ٢/ ٢٧٢.

(٣) فتح القدير، الشوكاني، ٢/ ٣٠٢.

(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٠٨.

(٥) تيسير التفسير، إبراهيم القطان، ٢/ ٨٩.

معنى، ولا تظهر له فائدة عند ذوى العقول الراجحة»^(٤).

«لعلكم تعقلون عن الله أو امره ونواهيه، أي: ليعدكم لأن تعقلوا الخير والمصلحة في فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه»^(٥).

قال تعالى: ﴿أَمْ أَنْتُمْ كَتَبْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ بِهِمْ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ ^(٦) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ^(٧) وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ^(٨) قُلْ أُولَٰئِكَ حِشَّتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءُهُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ^(٩) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَنْزَلْنَا إِلَهُكَ الْكَافِرِينَ ^(١٠) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ^(١١) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي ^(١٢) [الزخرف: ٢١-٢٧].

أنا أتبرأ مما تعبدون إلا من الله عز وجل، ويجوز أن يكون ﴿إِلَّا﴾ بمعنى لكن، فيكون المعنى: لكن الذي فطرني فإنه سيهديني، أي: سيرشدني لدينه ويوفقني لطاعته»^(٦).

«يعني: بريء من معبودكم، إلا الذي خلقتني، فإني لا أتبرأ منه، ﴿فَإِنَّهُ سَيِّدِي﴾»

كل ما يغضب الله تعالى، اللهم ألهم نفوسنا تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها، اللهم آمين.

قال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِنَّهِنَّ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنٌ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ^(١٣) [الأنعام: ١٥١].

﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: لكي تتفعلوا بعقولكم^(١).

﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي: تستعملون عقولكم التي تعقل نفوسكم وتحبسها عن مباشرة القبائح المذكورة»^(٢).

«وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ رجاء أن يعقلوا، أي: يصيروا ذوى عقول؛ لأن ملاسة بعض هذه المحرمات ينبى عن خساسة عقل، بحيث ينزل ملابسوها منزلة من لا يعقل، فلذلك رجي أن يعقلوا»^(٣).

«ذلكم وصاكم به الله، وأرشدكم، لتعقلوا الخير والمنفعة في فعل ما أمر به، وترك ما نهى عنه، إذ هو مما تدركه العقول، وفي هذا تعريض بأن ما هم عليه لا يعقل له

(٤) التفسير الواضح، محمد محمود الحجازي، ٦٨٢/١.

(٥) التفسير المنير، الزحيلي، ٩٨/٨.

(٦) مفاتيح الغيب، الرازي، ٦٢٩/٢٧.

(١) انظر: تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٣١٥/٤.

(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ١٩٩/٣.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٦٢/٨.

أبصارهم عن نور الهداية والإيمان.
إن البشرية قد بلغت رشدًا فأصبحت
تقاد بالعقل وحده، ولم يعد ينفع معها
مجرد الخوارق والقوارع الملجئة أو شبه
الملجئة، فجاء الإسلام دينًا منطقيًا، رفع
من قيمة العقل، ثم هو بعد ذلك يذم التقليد
وينعي على المقلدين لأبائهم وأحبارهم
ورهبانهم^(٤).

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ
اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانُوا
آبَاءَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ
﴿٣٠﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَتَّقُ
يَمًّا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءَ وَنداءً صُمُّ بَكْمُ عُنَى فَهُمْ لَا
يَعْقِلُونَ ﴿٣١﴾﴾ [البقرة: ١٧٠-١٧١].

﴿لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا﴾ يعني لا يعلمون
شيئًا من أمر الدين، لفظه عام ومعناه خاص،
وذلك أنهم كانوا يعقلون أمر الدنيا ﴿وَلَا
يَهْتَدُونَ﴾ أي: إلى الصواب^(٥).

فقال الضحاك عن ابن عباس: ﴿وَإِذَا
قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ يعني: كفار قریش
من بني عبد الدار، قالوا: ﴿بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا
عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ من عبادة الأصنام. فقال الله:
﴿أَوَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ
شَيْئًا﴾ من التوحيد ومعرفة الرحمن ﴿وَلَا
يَهْتَدُونَ﴾ للحجة البالغة لا يعقلون شيئًا

(٤) انظر: مجلة البحوث الإسلامية، محمد حسين
الذهبي، ٥٩/١.
(٥) لباب التأويل، الخازن، ١/١٠٢.

يعني: يثبتني على دين الإسلام^(١).
«قال ذلك ثقة بالله وتنبهًا لقومه أن
الهداية من ربه»^(٢).

«لكن الذي فطرني هو معبودي الهادي
المنجي من العذاب، وفي هذا استدعاء
لهم، وترغيب في طاعة الله، وتطمين في
رحمته»^(٣).

فصاحب العقل السليم والفطرة السليمة،
يمنع نفسه من ارتكاب المعاصي والوقوع
في المحرمات، وذلك لأن العقل معناه:
الكف والحس، فهو يحبس صاحبه ويكفه
عن كل ما يغضب الله سبحانه وتعالى.

رابعًا: البعد عن التقليد المذموم:

أرسل الله تعالى الرسل لهداية الناس
والأخذ بأيديهم من الظلمات إلى النور
وهداية قلوبهم بنور الإيمان، بعد ما كانت
مظلمة بظلمة الكفر، واتباعهم لتقاليد
الآباء الكفرية والشركية التي هي بعيدة كل
البعد عن شريعة الإسلام، ولكن بعضهم
رفضوا الانقياد لمنهج الله القويم، فكان
عقابهم جهنم وبئس المصير، فخسروا
الدنيا والآخرة، وشبههم الله تعالى بالأنعام
بل هم أضل سبيلاً؛ لتعطيلهم عقولهم عن
الفهم والإدراك، وصممهم لأذانهم، وطمس

(١) تفسير السمرقندي، ٣/٢٥٥.

(٢) النكت والعيون، الماوردي، ٥/٢٢٢.

(٣) الجواهر الحسان، الثعالبي، ٥/١٧٨.

أبائهم لأبائهم تقليد في ضلال. وفي هذا دليل على أن دين الله هو اتباع ما أنزل الله، لأنهم لم يؤمروا إلا به»^(٤).

وهكذا نجد كيف أن الله تعالى ذم المقلدين للأباء أو الرؤساء الجاهل، والمعرضين عن اتباع منهج الله تعالى وتعاليمه.

قال تعالى: ﴿أَمْ أَنْتُمْ كَتَبْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ ۚ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢١-٢٣].

«وفي هذا دليل على إبطال التقليد، لزمه إياهم على تقليد آبائهم وتركهم النظر فيما دعاهم إليه الرسول صلى الله عليه وسلم»^(٥).

«أي: لم يأتوا بحجة عقلية أو نقلية بل اعترفوا بأن لا سند لهم سوى تقليد آبائهم الجهلة مثلهم»^(٦).

«وهذا من أعظم الأدلة الدالة على بطلان التقليد وقبحه، فإن هؤلاء المقلدة في الإسلام إنما يعملون بقول أسلافهم، ويتبعون آثارهم، ويقتدون بهم، فإذا رام

من أمر الدين ولا يهتدون، معنى الآية في أحد الأقوال: ومثل الذين كفروا في قلة عقلهم وفهمهم عن الله عز وجل وعن رسوله وسوء قبولهم عنهما كمثل المنعوق به من البهائم، التي لا تفقه من الأمر والنهي غير الصوت، فكذلك الكافر في قلة فهمه وسوء تفكره، الكافر ليس له من دعائه الآلهة وعبادته الأوثان إلا العناء والبلاء، ولا ينتفع منها بشيء فهم لا يعقلون»^(١).

«يقول تعالى ذكره لهؤلاء الكفار: فكيف أيها الناس تتبعون ما وجدتم عليه آباءكم فتركون ما يأمركم به ربكم، وآباؤكم لا يعقلون من أمر الله شيئاً، ولا هم مصيبون حقاً، ولا مدركون رشداً؟ وإنما يتبع المتبع ذا المعرفة بالشيء المستعمل له في نفسه، فأما الجاهل فلا يتبعه - فيما هو به جاهل - إلا من لا عقل له ولا تمييز»^(٢).

«معناه أيتبعون آباءهم وإن كانوا جاهلاً فيتابعوهم بغير حجة؟ فكأنه نهاهم عن التقليد وأمرهم بالتمسك بالحجة»^(٣).

«وفي هذا دلالة على ذم التقليد، وهو قبول الشيء بلا دليل ولا حجة. وحكى ابن عطية أن الإجماع منعقد على إبطاله في العقائد. وفي الآية دليل على أن ما كان عليه آباؤهم هو مخالف لما أنزل الله، فاتباع

(٤) البحر المحيط في التفسير، أبو حيان، ١٠٣/٢.

(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٧٥/١٦.

(٦) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٤٣/٨.

(١) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي، ٤٣/٢.

(٢) جامع البيان، الطبري، ٣٠٧/٣.

(٣) تفسير السمرقندي، ١١٢/١.

تبرر لهم أفعالهم، وإنما السبب الحقيقي أنهم يقلدون آباءهم تقليد الأعمى مع التعصب الشديد ولو كانوا على باطل»^(٥).

«وهذا دليل على إبطال التقليد في العقائد والأصول، لأن الله ذمهم على تقليد آبائهم، وتركهم النظر فيما دعاهم إليه الرسول صلى الله عليه وسلم»^(٦).

«قال سبحانه عن أهل النار: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾» [الملك: ١٠].

فقد كانت لديهم عقول وأسماع لزمهم بها الحجة عند الله تعالى»^(٧).

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَّلًا كَانِ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [لقمان: ٢١].

«بين أن مجادلهم مع كونها من غير علم فهي في غاية القبح، فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان يدعوهم إلى كلام الله، وهم يأخذون بكلام آبائهم، وبين كلام الله وكلام العلماء بون عظيم، فكيف ما بين كلام الله وكلام الجاهل؟!»^(٨).

(٥) التفسير الواضح، محمد محمود الحجازي، ٣٨٩/٣.

(٦) التفسير المنير، الزحيلي، ١٣٩/٢٥.

(٧) مقام العقل في الإسلام، د. محمد عمارة، ص ٧٦.

(٨) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل، ٤٥٥/١٥.

الداعي إلى الحق أن يخرجهم من ضلالة، أو يدفعهم عن بدعة قد تمسكوا بها وورثوها عن أسلافهم بغير دليل نير، ولا حجة واضحة، بل بمجرد قال وقيل لشبهة داحضة، وحجة زائفة، ومقالة باطلة، قالوا بما قاله المترفون من هذه الملل: إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون»^(١).

«أي: لم يأتوا بحجة عقلية، أو نقلية، بل اعترفوا بتقليد آبائهم الجهلة، وقالوا: إنا وجدنا آباءنا على حالة عظيمة تقصد، وإنا مهتدون على أعمالهم، وكذلك، أي: والأمر كما ذكر من عجزهم عن الحجة وتمسكهم بالتقليد»^(٢).

«وهذا الاحتجاج من هؤلاء المشركين الضالين، بتقليدهم لآبائهم الضالين، ليس المقصود به اتباع الحق والهدى، وإنما هو تعصب محض، يراد به نصرته ما معهم من الباطل»^(٣).

«هذا الكلام مسوقاً مساق الذم لهم إذ لم يقارنوا بين ما جاءهم به الرسول وبين ما تلقوه من آبائهم، فإن شأن العاقل أن يميز ما يلقي إليه من الاختلاف ويعرضه على معيار الحق»^(٤).

«ليست لهم حجة عقلية ولا حجة نقلية

(١) فتح القدير، الشوكاني، ٦٣٢/٤.

(٢) مراح لبيد، محمد الجاوي، ٣٨٢/٢.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٦٤.

(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٨٧/٢٥.

﴿قَالُوا بَلْ نَنبِئُكُمْ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ أي: وإذا قيل لهؤلاء المجادلين في توحيد الله: اتبعوا ما أنزل الله على رسوله من الشرائع المطهرة، لم يكن لهم حجة إلا اتباع الآباء الأقدمين فيما اعتقدوه من دين. وهذا في غاية القبح، فإن النبي صلى الله عليه وسلم يدعوهم إلى كلام الله الهادي إلى الحق والخير، وهم يأخذون بكلام آبائهم. وهذا منع صريح من التقليد في أصول العقيدة، لذا ويخهم الله على سوء مقالته^(١).

«فهذا هو سندهم الوحيد، وهذا هو دليلهم العجيب! التقليد الجامد المتحجر الذي لا يقوم على علم ولا يعتمد على تفكير. التقليد الذي يريد الإسلام أن يحررهم منه، وأن يطلق عقولهم لتتدبر ويشيع فيها اليقظة والحركة والنور، فيأبوا هم الانطلاق من إसार الماضي المنحرف، ويتمسكوا بالأغلال والقيود.

إن الإسلام حرية في الضمير، وحركة في الشعور، وتطلّع إلى النور، ومنهج جديد للحياة، طليق من إसार التقليد والجمود. ومع ذلك كان يابأه ذلك الفريق من الناس، ويدفعون عن أرواحهم هداة، ويجادلون في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير^(٢). وإذا دعوا إلى اتباع وحي الله رجعوا إلى

التقليد المحض بغير حجة فسلخوا طريق الآباء، فكان القائل منهم يقول: هم يتبعون دين آبائهم ولو كان مصيرهم إلى السعير^(٣).

خامسًا: إدراك الحكمة من الأحكام الشرعية:

لقد منَّ الله علينا بنعمة العقل، لنهتدي به خلال رحلة الحياة، فعن طريقه نعبد الله تعالى على بصيرة، حيث نتدبر الأحكام الشرعية، نتعلمها ونفهمها ونتفقه ما بها من أوامر ونواهٍ، فيُدركنا الحكمة يزداد اليقين، ويقوى الإيمان، وتوسع مدارك العقول كلما استنار الإنسان بعلم الله تعالى وهدايته لنا.

«إن الآيات التشريعية التي تبين فضل الله على الناس في تشريع الأحكام لهم كثيرة تكفل القسم المدني من القرآن بها، وجاءت وفق مبادئ الإسلام العظيم في التيسير ورفع الحرج وغيرها، مما ميز طبيعة التشريع الإسلامي عن غيره، وهنا فنحن أمام مجموعة من الآيات المتحدثة عن حكمة تحريم الخمر والميسر، وعن أهمية سنة مشروعية النفقة والصدقة، وعن أهمية سنة الزواج، وهي أمور قليلة إن قورنت بمجموع ما تحدث عنه القرآن في مسائل التشريع، لكن طلب التفكير فيها ربما لأمر خفية قد لا تدرك بمجرد العقل أو السمع، فلا بد من

(١) التفسير المنير، الزحيلي، ١٦٠/٢١.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٥/٢٧٩٣.

(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ٤/٣٥٣.

إعمال الفكر فيها^(١).

«القرآن العظيم جاء بهدايات كاملة تامة، تفي بحاجات جميع البشر في كل زمان ومكان؛ لأن الذي أنزله هو العليم بكل شيء، خالق البشرية والخير بما يصلحها ويفسدها، وما ينفعها ويضرها، فإذا شرع أمراً جاء في أعلى درجات الحكمة والخبرة، قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].»

ويزداد الوضوح عند التأمل في أحوال الأنظمة والقوانين البشرية التي يظهر عجزها عن معالجة المشكلات البشرية، ومسايرة الأوضاع والأزمنة والأحوال، مما يضطر أصحابها إلى الاستمرار في التعديل والزيادة والنقص، فيلغون غداً ما وضعوه اليوم؛ لأن الإنسان محل النقص والخطأ، والجهل لأعماق النفس البشرية، والجهل بما يحدث غداً في أوضاع الإنسان وأحواله وفيما يصلح البشرية في كل عصر ومصر^(٢).

قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٢].

«أي: لكي تعقلوا ما بينت لكم من الفرائض والأحكام وما فيه صلاحكم

وصلاح دينكم^(٣).

«ولما بين تعالى هذه الأحكام العظيمة المشتملة على الحكمة والرحمة امتن بها على عباده فقال: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [٢٤٢]، أي: حدوده، وحلاله وحرامه والأحكام النافعة لكم، لعلكم تعقلونها فتعرفونها وتعرفون المقصود منها، فإن من عرف ذلك أوجب له العمل بها^(٤).

«فكذلك أبين لكم سائر الأحكام في آياتي التي أنزلتها على نبيي محمد صلى الله عليه وسلم في هذا الكتاب، لتعقلوا- أيها المؤمنون بي وبرسولي- حدودي، تفهموا اللازم لكم من فرائضي، وتعرفوا بذلك ما فيه صلاح دينكم ودنياكم، وعاجلكم وآجلكم، فتعملوا به ليصلح ذات بينكم، وتناولوا به الجزيل من ثوابي في معادكم^(٥).

«وعد بأنه سيبين لعباده من الدلائل والأحكام ما يحتاجون إليه معاشاً ومعاداً. لعلكم تفهمونها فتستعملون العقل فيها^(٦).

«أي: مثل هذا التبيين الذي سبق من الأحكام، يبين لكم في المستقبل ما بقي من الأحكام التي يكلفها العباد. لعلكم تعقلون ما يراد منكم من التزام الشرائع والوقوف

(١) مصطلح التفكير كما جاء في القرآن الكريم، مجلة الشريعة والقانون، د. محمد خازر المجالي، ص ٥٢.

(٢) عقيدة المسلم في ضوء الكتاب والسنة، القحطاني، ٥٠/١.

(٣) لباب التأويل، الخازن، ١/١٧٦.

(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٠٦.

(٥) جامع البيان، الطبري، ٥/٢٦٦.

(٦) أنوار التنزيل، البضاوي، ١/١٤٨.

عندها، لأن التبين للأشياء مما يتضح للعقل بأول إدراك، بخلاف الأشياء المغيبات والمجملات، فإن العقل يرتبك فيها، ولا يكاد يحصل منها على طائل^(١).

قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِهْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ كَهَنَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِمَّا فَوَّضَ اللَّهُ إِلَىكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا جُنَاحًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبْرَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١﴾﴾ [النور: ٦١].

«فأنزل سبحانه لهم في كل وقت شرعاً يليق بذلك الزمان على لسان رسول من رسله عليهم الصلاة والسلام، جعل ذلك الشرع يطابق العقل السوي، والنور الضوي، والمنهل الروي، والسبب القوي، من تمسك به هدي ولم يزغ، حد فيه سبحانه حدوداً، وأقام فيه زواجر، لتظهر حكمته، ويتضح علمه وقدرته، فصارت شرائع متفقة الأصول، مختلفة الفروع، بحسب الأزمنة، إشارة إلى أن الفاعل في تغيير الأحكام

(٤) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ١٦٦/٨.

قال تعالى: ﴿قُلْ تَكَلَّوْا أَمَّا مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقِي تَحْنُ تَزْفُكُمُ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّيْتُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأنعام: ١٥١].

«أي: لكي تعقلوا فوائد هذه التكليف في الدين والدنيا»^(٢).

«أي: ليعدكم لأن تعقلوا الخير والمصلحة في فعل ما أمر به وترك ما نهى عنه»^(٣).

«أي: وصاكم الله بذلك لما فيه من إعدادكم، وباعث الرجاء في أنفسكم لأن تعقلوا ما فيه الخير والمنفعة في ترك ما نهى عنه وفعل ما أمر به، فإن ذلك مما تدركه العقول الصحيحة بأدنى تأمل، وفيه دليل على الحسن الذاتي وإدراك العقول له بنظرها، وإذا هي عقلت ذلك كان عاقلاً لها ومانعاً من المخالفة. وفيه تعريض بأن ما هم

(١) البحر المحيط في التفسير، أبو حيان الأندلسي، ٥٥٥/٢.

(٢) مراح لبيد، محمد الجاوي، ٣٥٤/١.

(٣) التفسير المنير، الزحيلي، ٩٨/٨.

والأحكام الشرعية، ونوقن بأن الله تعالى حد الحدود ووضع القيود، والفرائض والسنن لحكمة، بعضها أعلمنا بها، وبعضها أخفى سرها ولا يعلمها إلا هو سبحانه لغاية يريدنا هو.

سادساً: عدم اتباع الشيطان:

العاقل من ائتمر بأوامر الله عز وجل، حيث نهانا عن اتباع الشيطان؛ لأنه عدو لنا، ولا يريد لنا إلا الغواية والضلالة، لذا علينا أن نكون دائماً يقظين، وعقولنا وقلوبنا متنبهة؛ لئلا يوقعنا في شركه، ونحن في غفلة فنخسر دنيانا وأخرانا، نسأل الله السلامة.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىٰ ۖ ۞﴾ **آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمُ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۖ ٦٠** **وَأِنْ عَابَدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ۖ ٦١** **وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ۖ ٦٢** [يس: ٦٠-٦٢].

«أي: لا تطيعوا الشيطان في معصية الله» (٦).

«قد رأيتم آثار الهالكين قبلكم بطاعة الشيطان، أفلم تعقلوا ذلك؟» (٧).

«قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ نَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىٰ ۖ ۞﴾ **آدَمَ** أي: ألم آمركم وأوصيكم يا بني آدم **﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾** يعني: لا تطيعوه فيما يوسوس ويزين لكم من معصية

بحسب الأزمان واحد مختار، وامتحناً للعباد، تمييزاً لأهل الصلاح منهم من أهل الفساد» (١).

«أي: ما في تضاعيفها من الشرائع والأحكام، وتعملون بموجبها، وتحوزون بذلك سعادة الدارين» (٢).

«تعليل لذلك التبيين برجاء تعقل آيات الله سبحانه وفهم معانيها» (٣).

﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ﴾ الدالات على أحكامه الشرعية وحكمها، ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ عنه فتفهمونها، وتعقلونها بقلوبكم، وتكونوا من أهل العقول والألباب الرزينة، فإن معرفة أحكامه الشرعية على وجهها، يزيد في العقل، وينمو به اللب، لكون معانيها أجل المعاني، وآدابها أجل الآداب، ولأن الجزاء من جنس العمل، فكما استعمل عقله للعقل عن ربه، وللتفكر في آياته التي دعاه إليها، زاده من ذلك» (٤).

«وكذلك يبين الله للناس آياته وحكمه لعلمهم يدركون المنهج الإلهي، ولعلمهم يعقلون ما في هذه الآيات والحجج» (٥).

نجد أنه من الحكمة التدبر في الآيات

(١) نظم الدرر، البقاعي، ١٣/٣٢١.

(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ٦/١٩٧.

(٣) فتح القدير، الشوكاني، ٤/٦٣.

(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٧٥.

(٥) أيسر التفاسير، أسعد حومد، ١/٢٧٣٤.

(٦) معالم التنزيل، البغوي، ٧/٢٣.

(٧) زاد المسير، الجوزي، ٣/٥٢٩.

ظهور عداوته ووضوح إضلاله لمن له أدنى عقل ورأي»^(٤).

«فالشیطان يأمر البعض بترك عبادة الله وعبادة غيره فهو تولية، فإن لم يقدر يأمره بعبادة الله لأمر غير الله من رئاسة وجاه وغيرهما فهو صد، وهو يفضي إلى التولية؛ لأن مقصوده لو حصل لترك الله وأقبل على ذلك الغير فتحصل التولية»^(٥).

«أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ» عداوة الشيطان لكم»^(٦).

«أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ» أيها المشركون، إذ أطعتم الشيطان في عبادة غير الله، أنه لا ينبغي لكم أن تطيعوا عدوكم وعدو الله، وتعبدوا غير الله»^(٧).

«أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ» استفهام تقرير على تركهم الانتفاع بالعقل»^(٨).

«أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ» عداوته وتعلموا أن الواجب طاعة الله»^(٩).

قال تعالى: ﴿يَتَّبِعُهَا النَّاسُ لَكُلٌّ وَمَا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ

الله ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ أي: ظاهر العداوة، ﴿وَأَنْ أَتَّبِعُونِي﴾ أي: أطيعوني ووحّدوني ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي: لا صراط أقوم منه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ أي: خلقًا كثيرًا ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ يعني: ما أناكم من هلاك الأمم الخالية بطاعة إبليس»^(١).

هذا تقرير من الله للكفرة من بني آدم، الذين أطاعوا الشيطان وهو عدو لهم مبين، وعصوا الرحمن وهو الذي خلقهم ورزقهم؛ واتبعتم الشيطان فيما أمركم به، أفما كان لكم عقل في مخالفة ربكم فيما أمركم به من عبادته وحده لا شريك له، وعدولكم إلى اتباع الشيطان؟!»^(٢).

ألم أوصكم يا بني آدم أن لا تطيعوا الشيطان فيما يوسوس به إليكم من المعاصي، لأنه لكم عدو مبين واضح العداوة، ولقد أضل الشيطان منكم يا بني آدم أمما كثيرة، أكنتم تشاهدون آثار عقوباتهم ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ أنها لضلالهم، أو أفلم تكونوا تعقلون شيئا أصلا، فلذلك كفرتم ك كفرهم واستحققتهم العذاب مثلهم»^(٣).

«رجوع إلى بيان معاداة الشيطان مع

(٤) أنوار التنزيل، البيضاوي، ٤/ ٢٧٢.

(٥) مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٦/ ٣٠١.

(٦) فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ٤٣٣.

(٧) جامع البيان، الطبري، ٢٠/ ٥٤٣.

(٨) مدارك التنزيل، النسفي، ٣/ ١٠٩.

(٩) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٥/ ٤٧.

(١) لباب التأويل، الخازن، ٤/ ١١.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، بن كثير، ٦/ ٥٨٤.

(٣) انظر: التفسير الوسيط، مجموعة من العلماء

بإشراف مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر،

٨/ ٣٨٠.

﴿٣﴾ [البقرة: ١٦٨-١٦٩].

والمعاصي؛ لأنها كلها طاعة للشيطان وعبادة له، فحذرتكم منه غاية التحذير، وأذرتكم عن طاعته، وأخبرتكم بما يدعوكم إليه.

﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ أي: فلا كان لكم عقل يأمركم بموالاته ربكم ووليكم الحق، ويزجركم عن اتخاذ أعدى الأعداء لكم ولياً، فلو كان لكم عقل صحيح لما فعلتم ذلك، فإذا أطعتم الشيطان وعاديتهم الرحمن وكذبتهم بلفائمه ووردتم القيامة دار الجزاء وحق عليكم القول بالعذاب^(٢).

«وفرع عليه توبيخهم بقلة العقول بقوله: ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾، فالاستفهام إنكاري عن عدم كونهم يعقلون، أي: يدركون، إذ لو كانوا يعقلون لتفطنوا إلى إيقاع الشيطان بهم في مهاوي الهلاك. وزيادة فعل الكون للإيماء إلى أن العقل لم يتكون فيهم ولا هم كائنون به»^(٣).

«ألا تطيعوه، والمراد: عبادة غير الله من الآلهة الباطلة، مما زين به الشيطان وأمر به، فهو لكم ﴿عَدُوٌّ مَبِينٌ﴾ بين العداوة، ﴿وَأَنْ أَعْبُدُونِي﴾ وحدوني وأطيعوني، أي: أَلَمْ أَعهد إليكم بترك عبادة الشيطان، وعبادتي. ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي: طريق معتدل قويم، وهو دين الإسلام، أفلم تكونوا تعقلون

فهذا نهي عن اتباع وحي الباطل والشر، لأنه من إغواء الشيطان، ثم بين كيفية عداوته وفنون شره وإفساده فقال: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ﴾ أي: إنما يوسوس الشيطان ويتسلط عليكم، كأنه أمر مطاع بأن تفعلوا ما يوسوكم في دنياكم وآخرتكم، وأن تجترحوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، والتصرف في الأكوان بدون اتخاذ الأسباب قد ضلوا ضللاً بعيداً واتبعوا أمر الشيطان، ومثلهم من اتخذ رأي الرؤساء حجة في الدين من غير أن يكون بياناً أو تبليغاً لما جاء عن الله، فهؤلاء قد عرضوا عن سنن الله، وأهملوا نعمة العقل، واتخذوا من دون الله الأنداد، قال تعالى: ﴿مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَكَأَنَّ هَادِيًّ لَهُ﴾ [الأعراف: ١٨٦].

﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: ويأمركم أن تقولوا على الله في دينه ما لا تعلمون علم اليقين أنه شرعه لكم من عقائد وشعائر دينية، أو تحليل ما الأصل فيه التحريم، أو تحريم ما الأصل فيه الإباحة، ففي كل ذلك اعتداء على حق الربوبية بالتشريع، وهذا أقبح ما يأمر به الشيطان، فإنه الأصل في إفساد العقائد وتحريف الشرائع^(١)، أي: لا تطيعوه. وهذا التوبيخ يدخل فيه التوبيخ عن جميع أنواع الكفر

(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٩٨.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٤٩/٢٣.

(١) انظر: تفسير المراغي، ٤٤/٢.

عداوة الشيطان وإضلاله لكم ١٩»^(١).

«لقد عهدت إليكم يا بنى آدم عهداً مؤكداً على السنة رسلي، أن لا تعبدوا الشيطان وأن لا تستمعوا لوسوسته، وأن لا تتبعوا خطواته، لأنه لكم عدو ظاهر العداوة، بحيث لا تخفى عداوته على أحد من العقلاء»^(٢).

وهكذا نجد أن النجاة في مخالفة الشيطان، ولا يكون ذلك إلا باستعمال العقل السليم الذي يعرف الله ويخشاه ويهتدي بهدي محمد صلى الله عليه وسلم.

سابعاً: الأدب والتوقير للرسول الكريم والعلماء:

لقد أرسل الله تعالى لنا الرسل لتنير عقولنا وقلوبنا بنور الهداية والإيمان، لذا علينا اتباعهم بالحسنى واحترامهم وتوقيرهم كما أمرنا ربنا سبحانه وتعالى، لأننا عن طريقه صلى الله عليه وسلم وصلنا القرآن، وتعرفنا على منهج الهداية والإيمان والشرعية الصحيحة السليمة، وعرفنا كيف نصد الشيطان ونستمر في طريق الهدى والتقوى، وكيفية التعامل مع الآخرين من أهل وأقارب وجيران.

أما الأدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم فقد أخل كثير من الناس بواجبهم تجاهه، بل هم يرون الغارات تشن وبشكل

مستمر ومبرمج من اليهود والنصارى ومن لا أخلاق له، ولا يحركون ساكناً، فقد دأب أعداء الله يملؤون الصحف والمنتديات الإلكترونية والكتب المدرسية الغربية بسمومهم وهجومهم الموبوء وإساءاتهم المتكررة، ولا زالوا منذ البعثة إلى يومنا هذا يتعاونون على الإثم والعدوان على رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم. وقد كشف الله سبحانه حقيقتهم في القرآن الكريم، وفضح حقدهم الدفين في الصد عن شريعة خاتم الأنبياء والمرسلين.

قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢].

﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ﴾ أي: إذا نطق ونطقتم، ولا تجهروا له بالقول إذا كلمتموه؛ لأن رتبة النبوة والرسالة يجب أن توقر وتجل، ولا يكون الكلام مع الرسول صلى الله عليه وسلم كالكلام مع غيره، وكره العلماء رفع الصوت عند قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبحضرة العالم، وفي المساجد^(٣).

«أمرهم أن يبجلوه ويفخموه ويعظموه، ولا يرفعوا أصواتهم عنده، ولا ينادوه كما

(٣) انظر: البحر المحيط في التفسير، أبو حيان الأندلسي، ٥٠٧/٩.

(١) التفسير المنير، الزحيلي، ٣٥/٢٣.

(٢) التفسير الوسيط، طنطاوي، ٤٥/١٢.

الأتقياء والصلحاء؛ أسوة بتوقير سيد الأنبياء»^(٥).

« فأمرهم الله بتوقيره، وأن يدعوه بالنبوة والرسالة والكلام اللين، وكره العلماء رفع الصوت عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم وبحضرة العالم وفي المساجد، وحرمة النبي صلى الله عليه وسلم ميتاً كحرمة حيّاً، وكلامه المأثور بعد موته في الرفعة مثل كلامه المسموع من لفظه»^(٦).

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتَادُونَكَ مِنْ وِزْوَةِ الْحُجْرَةِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾^(٧)
[الحجرات: ٤].

«وصفهم بالجهل وقلة العقل»^(٧).
﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ إذ العقل يقتضي حسن الأدب ومراعاة الحشمة، سيما لمن كان بهذا المنصب. لكان الصبر خيراً لهم من الاستعجال لما فيه من حفظ الأدب وتعظيم الرسول الموجبين للثناء والثواب^(٨).

والكتاب العزيز مملوء بدعوة العقلاء إلى الأدب مع النبي صلى الله عليه وسلم، فإنه الرحمة، وهو المثل، والهادي البشير، والسراج المنير، كيف لا وهو صلى الله عليه وسلم القدوة الكاملة والأسوة الحسنة لكل

ينادي بعضهم بعضاً فيقول: يا محمد. بل يقولون: يا رسول الله، يا نبي الله»^(١).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ يحتمل أن المراد حقيقة رفع الصوت؛ لأن ذلك يدل على قلة الاحتشام وترك الاحترام؛ لأن خفض الصوت وعدم رفعه من لوازم التعظيم والتوقير»^(٢).

«هذه آداب أدب الله بها عباده المؤمنين فيما يعاملون به الرسول صلى الله عليه وسلم من التوقير والاحترام والتبجيل والإعظام»^(٣).

«يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه، لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي عند مخاطبتكم له، ولا تجهروا بمناداته كما يجهر بعضكم لبعض، وميزوه في خطابه كما تميز عن غيره في اصطفاؤه لحمل رسالة ربه، ووجوب الإيمان به، ومحبه وطاعته والافتداء به؛ خشية أن تبطل أعمالكم وأنتم لا تشعرون ولا تحسون بذلك»^(٤).

«وفي هذا ما فيه من الحث على توقير العلماء الذين هم ورثة الأنبياء، وتعظيم

(١) لباب التأويل، الخازن، ١٧٦/٤.

(٢) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل، ٥٢٣/١٧.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣٦٤/٧.

(٤) التفسير الميسر، نخبة من أساتذة التفسير، ٥١٥/١.

(٥) أوضح التفاسير، محمد الخطيب، ٦٣٣/١.

(٦) الجواهر الحسان، الثعالبي، ٢٦٨/٥.

(٧) لباب التأويل، الخازن، ١٧٧/٤.

(٨) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي، ١٣٤/٥.

من كان يرجو الله واليوم الآخر؟! قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

شرح الله صدره، ووضع وزره، ورفع ذكره، وأوجب طاعته، وحرم خيائته، وما تخلف ركب الأمة اليوم إلا يوم أن تخلفت عن الأدب معه صلى الله عليه وسلم، وما تجرع أفراد الأمة مرارات البعد عن جمال الحياة وطيب معانيها إلا يوم أن بعدت نفوسهم عن سيرته الرائعة وعن هديه، فصاروا يركضون وراء كل من أوتى ظاهراً من الحياة الدنيا، يخلعون عليه لباس العظمة والبهاء باسمه وقوله وشخصه زعمًا وزورًا! فكم من صفيق وجه صفقوا له، وكتبوا عنه الأسفار، وتناقلوا أقواله! وكم من سفيه نصبوه إمامًا يقتدى به، فأضحى الذي أملوه سرابًا بقية وأضغاث أحلام! فالبعد عن سيرة نبينا صلى الله عليه وسلم والاهتداء بغيره هو مستنقع الجهل وهوة الضلال وحياة الشقاء، وطاعته هداية وسعادة وفوز^(١).

يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله، لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت رسول الله تتجهموه بالكلام، وتغلظون له في الخطاب، ولا تنادوه كما ينادي بعضكم بعضًا: يا

محمد، يا محمد، يا نبي الله، يا نبي الله، يا رسول الله. نهاهم الله أن ينادوه كما ينادي بعضهم بعضاً وأمرهم أن يشرفوه ويعظموه، ويدعوه إذا دعوه باسم النبوة^(٢).

«فدمهم الله بعدم العقل؛ حيث لم يعقلوا عن الله الأدب مع رسوله واحترامه، كما أن من العقل وعلامته استعمال الأدب»^(٣).

(١) انظر: موسوعة الأخلاق، خالد الخراز، ١٣٧/١.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢٢/٢٧٧.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٩٩.

الأوصاف كناية عن انتفاء قبولهم للإيمان وإعراضهم عما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم وظاهر هذه الأخبار العموم^(٢).

«إن شر الناس عند الله الصم عن الهدى البكم، يعني: الخرس الذين لا يتكلمون بخير، الذين لا يعقلون الإيمان»^(٣).

«سماهم دواب لقلة انتفاعهم بعقولهم»^(٤).

«قوله تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

«أي: ما هم إلا كالأنعام، جعلهم كالأنعام؛ لأنهم لم يدركوا طريق الحق، ولم ينتفعوا بما ميزهم الله به عن البهائم من عقولهم وأسماعهم وأبصارهم»^(٥).

«أي: لا ينتفعون بما يعقلون»^(٦).

«لم يخلق للأنعام قلوباً تعقل بها ولا ألسنة تنطق بها، وأعطى ذلك لهؤلاء ثم لم ينتفعوا بما جعل لهم من العقول والقلوب والألسنة والأسماع والأبصار فهم أضل من البهائم، فإن من لا يهتدي إلى الرشd وإلى الطريق مع الدليل له، أضل وأسوأ حالاً ممن

الآثار المترتبة على إهمال العقل

زودنا الله سبحانه وتعالى بالعقل، كي نعبده حق العبادة ونميزه بين الحق والباطل، وبين ما ينفعنا وما يضرنا، ولم يتركنا هملاً كالحيوانات، ولم يعط أحداً منا عذراً حين يعطل عقله، بل منع من تناول أي نوع من الأطعمة أو الأشربة التي تجعل العقل في غيبوبة عن العالم الذي حوله، أو تؤدي إلى ضرر في عقله أو صحته، فيمتنع عن العبادة، لكن بعض الأشخاص لم يستعملوا عقولهم في التفكير والتدبر في الآيات الكونية كما أمرنا الله تعالى، بل كانوا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً بتقليدهم لأبائهم أو لكبرائهم في الكفر.

قال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢].

إن شر ما دب على الأرض من خلق الله عند الله، الذين يصمون عن الحق لئلا يستمعوه، فيعتبروا به ويتعظوا به، وينكصون عنه إن نطقوا به، الذين لا يعقلون عن الله أمره ونهيه، فيستعملوا بهما أبدانهم»^(١).

«وهذا مطابق لقوله تعالى: ﴿صُمُّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

إلا أنه زاد في هذا وصف العمى وكل هذه

(٢) انظر: البحر المحيط في التفسير، أبو حيان، ٣٠٠/٥.

(٣) تفسير السمرقندي، ١٤/٢.

(٤) معالم التنزيل، البغوي، ٣/٣٤٣.

(٥) تفسير القرآن، السمعاني، ٢٢/٤.

(٦) تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٢٩/٨.

(١) جامع البيان، الطبري، ٤٥٩/١٣.

لا يهتدي حيث لا دليل معه»^(١).

«سماع قبول أو يفكرون فيما تقول فيقولونه، أي أهم بمنزلة من لا يعقل ولا يسمع، وقيل: المعنى أنهم لما لم ينتفعوا بما يسمعون فكأنهم لم يسمعوا»^(٢).

«ليس المراد أنهم لا يعقلون بل إنهم لا ينتفعون بذلك العقل»^(٣).

كذلك من عطل عقله عن العمل، سيكون تابعاً لغيره ومقلداً له، وقد نهانا الله تعالى عن الاتباع إلا لله تعالى وللرسول صلى الله عليه وسلم، فكيف بمن كان متبعاً لجاهل أو كافر فماذا سيكون مصيره؟ سيكون من أهل الضلالة والجهالة.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

«أخبر تعالى عن حال المشركين إذا أمروا باتباع ما أنزل الله على رسوله، رغبوا عن ذلك واكتفوا بتقليد الآباء، وزهدوا في الإيمان بالأنبياء، ومع هذا فأباؤهم أجهل الناس، وأشدهم ضلالاً وهذه شبهة لرد الحق واهية، فهذا دليل على إعراضهم عن الحق، ورغبتهم عنه، وعدم إنصافهم، فلو هدوا لرشدتهم، وحسن قصدهم، لكان

الحق هو القصد، ومن جعل الحق قصده، ووازن بينه وبين غيره، تبين له الحق قطعاً، واتبعه إن كان منصفاً»^(٤).

«الآية تضمنت النهي عن التقليد؛ لأن الله تعالى أنكر عليهم متابعة آبائهم، وأمر بمتابعة العقل والهدى»^(٥).

«أيتبعون ما ألفوا عليه آباءهم في تقاليدهم وعاداتهم، ولو كان آبائهم لا يعقلون شيئاً من الحق في أمور العقائد والعبادات، بل ولو تجردوا من أي دليل منطقي، وحادوا عن الصواب، وهذا يدل على ذم التقليد بدون دليل»^(٦).

«ومثل الذين كفروا فيما هم فيه من الغي والضلال، والجهل وتقليد الآباء والرؤساء، كمثل الدواب السارحة التي لا تفقه شيئاً مما يقال لها، فإذا نعق فيها راعيها فإنها تسمع صوته، ولكنها لا تفقه ما يقول ولا تفهمه، فهم صم عن سماع الحق، وبكم لا يتفوهون به، وعمي عن رؤية طريقه ومسلكه، لا يعقلون شيئاً ولا يفهمون»^(٧).

وهكذا بناء على تفسير العلماء للآية نرى حال من يقلد الآخرين دون تعقل وتمييز بين الحق والباطل، ويعطل عقله وحواسه عن الفهم والإدراك، كيف يكون كالدواب التي

(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨١.

(٥) التفسير البسيط، الواحدي ٣/ ٤٩٠.

(٦) التفسير المنير، الزحيلي، ٢/ ٧٣.

(٧) المصدر السابق، ٢/ ٧٦.

(١) الأمثال في القرآن، ابن القيم ص ٢٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٣/ ٣٦.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٤/ ٤٦٣.

من يعرف بطلان ذلك ولكن يمنعهم حب
الرياسة وتقليد الآباء أن يعترفوا بها^(٥).
ويستج عن إهمال العقل عدم إعماله آثار
سيئة، منها:
١. عبادة غير الله تعالى.

فصاحب العقل السليم والفطرة السليمة
لا يصرف عبادته إلا لله الواحد سبحانه^(٦).
قال تعالى: ﴿قَالُوا ءَأَنْتَ فَكَلْتَ هَذَا
بِرَّاهِمِنَا يَتَّبِعُهُمْ ۖ قَالَ بَلْ فَعَلَهُمُ
كَبِيرُهُمْ هَذَا فَتَلَّوْهُمُ إِنَّ كَانُوا
يَنْطِقُونَ ۖ﴾ ﴿١٣﴾ ﴿فَرَحَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا
لَكُمْ أَنْتُمْ أَظْلَمُ لِمَنْ ۖ ثُمَّ تَكْسُوا عَلَى
رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ
ۖ﴾ ﴿١٤﴾ ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا
يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۖ أَفَبَلَّكُمْ
وَلَمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ
ۖ﴾ [الأنبياء: ٦٢-٦٧].

قص الله سبحانه علينا كيف أن قوم
إبراهيم عليه السلام كانوا يعبدون الأصنام
ثم قام بدعوتهم لعبادة الله وحده ولما لم
يستجيبوا له قام بتكسير تلك الأصنام وبعد
ذلك قامت بينهم مشادة فاتهموه بتكسيروها،
قال إبراهيم موبخاً لهم ومعلناً بشركهم
على رؤوس الأشهاد، ومبيناً عدم استحقات

لا تعقل، نسأل الله الهداية.
قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَسَآلَوْا إِلَى مَا
أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا
عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوَّلُ كَانِ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا
وَلَا يَهْتَدُونَ ۖ﴾ [المائدة: ١٠٤].

«أيتبعون آباءهم وإن كان آباؤهم جهالا،
فنهاهم الله عن التقليد، وأمرهم بالتمسك
بالحق وبالحجة»^(١).

«يكفي ما وجدنا عليه آباءنا من الدين
والمناهج أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا
من الدين ولا يهتدون له، أيتبعونهم في
خطئهم»^(٢).

«يعني قد اكتفينا بما أخذنا عنهم من
الدين ونحن لهم تبع، ولا يصح الاقتداء
إلا بالعالم المهتدي الذي يبيّن قوله على
الحجة والبرهان والدليل، وأن آباءهم ما
كانوا كذلك فيصح اقتداؤهم بهم»^(٣).

«تتبعون آباءكم وتقتدون بهم، وإن كنتم
تعلمون أن آباءكم لا يعلمون شيئا في أمر
الدين ولا يهتدون، وإن جنتكم بأهدى مما
كان عليه آباؤكم؛ يسفهم في أحلامهم في
تقليدهم آباءهم، وإن ظهر عندهم أنهم على
ضلال ويأطل»^(٤).

«ولكنهم يقلدون كبارهم وفيه أن منهم

(١) تفسير السمرقندي، ١/ ٤٢٣.

(٢) زاد المسير، الجوزي، ١/ ٥٩٤.

(٣) لباب التأويل، الخازن، ٢/ ٨٤.

(٤) تأويلات أهل السنة، الماتريدي، ٣/ ٦٣٥.

(٥) أنوار التنزيل، البيضاوي، ٢/ ١٤٦.

(٦) البناء العقلي في ضوء القرآن الكريم، ميساء
كمال قلجة، ص ١٣١.

ألهتهم للعبادة، فلا نفع ولا دفع، ما أضلكم وأخسر صفقتكم، وما أخسركم، أنتم وما عبدتم من دون الله، إن كنتم تعقلون عرفتم هذه الحال، فلما عدتم العقل، واركنتم الجهل والضلال على بصيرة، صارت البهائم، أحسن حالاً منكم^(١).

«قبحا لكم وللآلهة التي تعبدون من دون الله، أفلا تعقلون قبح ما تفعلون من عبادتكم ما لا يضر ولا ينفع، فتركوا عبادته، وتعبدوا الله الذي فطر السماوات والأرض، والذي بيده النفع والضرر»^(٢).

٢. افتراء الكذب على الله.

نجد أن المشركين يشرعون في الدين من البدع والضلالات ما لم يشرعه الله تعالى، بينما من أعمل عقله فلا يتبع إلا ما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية.

قال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَيِّنَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيَّةٍ وَلَا حَاجٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُلُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣].

﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أراد بالأكثر الاتباع يعني: أن الاتباع لا تعقل أن هذا كذب وافتراء من الرؤساء على الله عز وجل^(٣). «وصفهم الله سبحانه بأنهم ما قالوا ذلك

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٢٦.

(٢) جامع البيان، الطبري، ١٨/ ٤٦٤.

(٣) لباب التأويل، الخازن، ٢/ ٨٤.

إلا افتراء على الله وكذباً، لا لشرع شرعه الله لهم ولا لعقل دلهم عليه، وسبحان الله العظيم ما أرك عقول هؤلاء وأضعفها! يفعلون هذه الأفاعيل التي هي محض الرقاعة ونفس الحمق، وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا وهذه أفعال آبائهم وسنتهم التي سنوها لهم، وصدق الله سبحانه حيث يقول: ﴿أَوَلَوْ كَانُوا يَأْذَنُونَ لَأَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ أي: ولو كانوا جهلة ضالين^(٤).

«وصفهم الله سبحانه بأنهم ما قالوا ذلك إلا افتراء على الله وكذباً لا لشرع شرعه الله لهم، ولا لعقل دلهم الله عليه، وسبحان الله العظيم ما أرك عقول هؤلاء وأضعفها! يفعلون هذه الأفاعيل التي هي محض الرقاعة ونفس الحمق، وهذا شأن علمائهم ورؤسائهم وكبرائهم»^(٥).

٣. تقليد الآباء السادة في ضلالهم. بينما العاقل يعلم أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق فلا يتبع إلا الدين الصحيح دين الإسلام.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

(٤) فتح القدير، الشوكاني، ٢/ ٩٤.

(٥) فتح البيان، صديق خان، ٤/ ٦٦.

يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ

[البقرة: ٧٥].

« في ذلك قولان:

أحدهما: أنهم علماء اليهود والذين يحرفونه التوراة فيجعلون الحلال حراماً والحرام حلالاً اتباعاً لأهوائهم وإعانة لراشيتهم، وهذا قول مجاهد والسدي.

والثاني: أنهم الذين اختارهم موسى من قومه، فسمعوا كلام الله فلم يمثلوا أمره وحرفوا القول في إخبارهم لقومهم، وهذا قول الربيع بن أنس وابن إسحاق^(٥).

«ومعنى الآية الكريمة: أفتطمعون- أيها المؤمنون- بعد أن وصفت لكم من حال اليهود ما وصفت من جحود ونكران، أن يدخلوا في الإسلام. والحال أنه كان فريق من علمائهم وأخبارهم يسمعون كلام الله ثم يميلونه عن وجهه الصحيح من بعد ما فهموه، وهم يعلمون أنهم كاذبون بهذا التحريف على الله تعالى، أو يعلمون ما يستحقه محرفه من الخزي والعذاب الأليم»^(٦).

«والمراد من التحريف أنهم عمدوا إلى ما سمعوه من التوراة، فجعلوا حلاله حراماً أو نحو ذلك مما فيه موافقة لأهوائهم، كتحريفهم صفة رسول الله صلى الله عليه

«فكيف أيها الناس تتبعون ما وجدتم عليه آباءكم فتركون ما يأمركم به ربكم، وآباؤكم لا يعقلون من أمر الله شيئاً، ولا هم مصيئون حقاً، ولا مدركون رشداً؟ وإنما يتبع المتبع ذا المعرفة بالشئ المستعمل له في نفسه، فأما الجاهل فلا يتبعه فيما هو به جاهل إلا من لا عقل له ولا تمييز^(١).

«أيتبعون آباءهم وإن كانوا جهالاً فيتابعوهم بغير حجة؟ فكأنه نهاهم عن التقليد وأمرهم بالتمسك بالحجة»^(٢).

«فاكتفوا بتقليد الآباء، وزهدوا في الإيمان بالأنبياء، ومع هذا فأباؤهم أجهل الناس، وأشدهم ضلالاً وهذه شبهة لرد الحق واهية، فهذا دليل على إعراضهم عن الحق، ورغبتهم عنه، وعدم إنصافهم»^(٣).

«رد عليهم، وبيان لبطلان الاعتماد في الدين على مجرد تقليد الآباء»^(٤).

٤. تحريف كلام الله.

فهم بعد ما عقلوه وفهموه، يؤولونه تبعاً لأهوائهم لكن المسلم العاقل لا يحرف ولا يؤول بل يتبع ما أنزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من قرآن أو سنة.

قال تعالى: ﴿أَفَنظَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا بِالْكِتَابِ وَقَدْ كَانُ قَرِيبًا مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٣/ ٣٠٨.

(٢) تفسير السمرقندي، ١/ ١١٢.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨١.

(٤) التفسير الوسيط، طنطاوي، ١/ ٣٤٦.

(٥) النكت والعيون، الماوردي، ١/ ١٤٨.

(٦) التفسير الوسيط، طنطاوي، ١/ ١٧٩.

وسلم وإسقاط الحدود عن أشرافهم، أو سمعوا كلام الله لموسى فزادوا فيه ونقصوا، وهذا إخبار عن إصرارهم على الكفر وإنكار على من طمع في إيمانهم وحالهم هذه الحال: أي ولهم سلف حرفوا كلام الله وغيروا شرائعه وهم مقتدون بهم متبعون سييلهم»^(١).

٥. الاستهزاء بدين الله تعالى وشعائره.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْخَرُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارُ أَولِيَاءُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَكُمْ مُؤْمِنِينَ ۝٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوءًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ۝٥٨﴾ [المائدة: ٥٧-٥٨].

«الكفار، إذا سمعوا الأذان استهزؤوا به. وإذا رأوهم ركعاً وسجدوا ضحكوا واستهزؤوا بذلك. ذلك الاستهزاء بأنهم قوم لا يعقلون يعني: لا يعلمون ثوابه»^(٢).

«قال الكلبي: كان إذا أذن المؤذن وقام المسلمون إلى الصلاة قالت اليهود: قد قاموا لا قاموا، وكانوا يضحكون إذا ركع المسلمون وسجدوا وقالوا في حق الأذان: لقد ابتدعت شيئاً لم نسمع به فيما مضى من الأمم، فمن أين لك صياح مثل صياح العير؟ فما أقبحه من صوت، وما أسمى من أمر،

وقيل: إنهم كانوا إذا أذن المؤذن للصلاة تضاحكوا فيما بينهم وتغامزوا على طريق السخف والمجون، تجهيلاً لأهلها، وتنفيراً للناس عنها وعن الداعي إليها. وقيل: إنهم كانوا يرون المنادي إليها بمنزلة اللاعب الهازئ بفعلها، جهلاً منهم بمنزلتها»^(٣).

وكذلك ما كان عليه المشركون والكفار المخالفون للمسلمين، من قدحهم في دين المسلمين، واتخاذهم إياه هزواً ولعباً، واحتقاره واستصغاره، خصوصاً الصلاة التي هي أظهر شعائر المسلمين، وأجل عباداتهم، إنهم إذا نادوا إليها اتخذوها هزواً ولعباً، وذلك لعدم عقلهم ولجهلهم العظيم، وإلا فلر كان لهم عقول لخضعوا لها، ولعلموا أنها أكبر من جميع الفضائل التي تتصف بها النفوس. فكيف تدعي لنفسك ديناً قيماً، وأنه الدين الحق وما سواه باطل، وترضى بموالة من اتخذ هزواً ولعباً، وسخر به وبأهله، من أهل الجهل والحمق؟!

وهذا فيه من التهيج على عداوتهم ما هو معلوم لكل من له أدنى مفهوم^(٤).

مما سبق يجب علينا جميعاً أن نحرض على استعمال عقولنا في التقرب إلى الله تعالى، بعبادة التفكير والتدبر في آيات الله

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٢٢٤/٦.

(٤) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٣٧.

(١) فتح القدير، الشوكاني، ١/١٢٠.

(٢) تفسير السمرقندي، ١/٤٠١.

تعالى المنظورة والمسطورة، عسى الله
تعالى أن ينفعنا بهذه العبادة، ويزداد إيماننا،
ولا نترك عقولنا معطلة عن العمل فتصدأ
وتتعطل حواسنا، فنضل عن سبيل الله
ونتعرض لسخط الله، باتباعنا الشيطان أو
نقلد الضالين المعاندين لدين الله.
نسأل الله الهدى والتقى، والحمد لله
الذي تتم بنعمته الصالحات.

موضوعات ذات صلة:

الآيات الكونية، التدبر، التفكير، الحكمة،
الحوار، الغفلة

